

**صفحات من تاريخ تهامة
والسراة وصلاتها مع الحجاز
واليمن خلال العصر الإسلامي
المبكر ، والوسيط ، والحديث (*)**

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن


جريس، (الطبعة الأولى) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٤٢هـ /

٢٠٢١م)، (الجزء التاسع عشر) ص ص ٨٥ - ١٧٩ .



القسم الثاني

صفحات من تاريخ تهامة
والسراة وصلاتها مع
الحجاز واليمن خلال
العصر الإسلامي المبكر،
والوسيط والحديث



القسم الثاني

صفحات من تاريخ تهامة والسراة وصلاتها مع الحجاز واليمن خلال العصر الإسلامي المبكر، والوسيط والحديث^(١)

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	مدخل	٨٦
ثانياً:	الصلوات الدعوية بين الرسول (ﷺ) وبين أهل تهامة والسراة (دراسات تاريخية)	٨٧
ثالثاً:	بلاد السراة في العصر الأموي (دراسة لبعض مظاهر الحضارة)	١٢٣
رابعاً:	لمحات من صلوات تهامة والسراة مع بلاد اليمن والحجاز عبر أطوار التاريخ الإسلامي (ق١-ق١٥هـ/ق٧-ق٢١م)	١٤١
خامساً:	خلاصة آراء واقتراحات	١٧٦

أولاً: مدخل :

نشرت في هذا القسم ثلاث دراسات، الأولى: الصلوات بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد السراة وتهامة في عصر الرسول (ﷺ). الثانية: ورقات من تاريخ السراة في عصر الدولة الأموية (١٢٢-٤١هـ/٧٩٤-٦٦٠م). والثالثة: لمحات من صلوات تهامة والسراة مع اليمن والحجاز خلال العصور الإسلامية (ق١-ق١٥هـ/ق٧-ق٢١م). ولا أدعي الكمال فيما تم رسده، لكنني على يقين أن نسبة الحقيقة فيما دونته عالية جداً. وأعتقد أن هذه الموضوعات قد تجلب دوافع الرغبة والعمل عند بعض الباحثين فيصححوا ما وقعت فيه من أخطاء، أو يستكملوا ما لم أستطع عمله ودراسته. أو يظهر منهم من يطبق المنهج الذي اتبعته على منطقة أو أقوام آخرين. وكلنا طلاب علم ومعرفة، ونأمل من الله (عز وجل) التوفيق والإخلاص الباطني قبل الظاهري في كل ما نقوم به، ونعمله من أجل خدمة بلادنا وتاريخنا وحضارتنا. (والله الهادي إلى سواء السبيل).

(١) جميع الدراسات المنشورة في هذا القسم من إعداد الباحث (ابن جريس)، وبعضها سبق نشرها في مؤتمرات ولقاءات علمية خلال العقود الماضية المتأخرة.

ثانياً: الصلات الدعوية بين الرسول ﷺ وبين أهل تهامة والسراة (دراسة تاريخية)^(١).

م	العنوان	الصفحة
أولاً:	مقدمة	٨٧
ثانياً:	تهامة والسراة جغرافياً وقبلياً عند ظهور الإسلام .	٨٩
	١- تهامة والسراة جغرافياً	٨٩
	٢- تهامة والسراة قبلياً	٩٠
	أ- قبيلة مذحج	٩٠
	ب- قبيلة همدان	٩١
	ج- قبيلة حمير	٩١
	د- قبائل خولان	٩٢
	هـ- القبائل التهامية	٩٢
	و- قبائل بلاد السراة	٩٣
	ز- نصارى نجران	٩٤
ثالثاً:	استجابة بعض أهل تهامة والسراة للإسلام في مرحلة الدعوة المكية	٩٥
رابعاً:	انتشار الإسلام في تهامة والسراة خلال مرحلة الدعوة المدنية	٩٨
	١- الدعوة عن طريق الدعاة والرسائل	٩٨
	٢- إرسال البعوث والسرايا لنشر الإسلام بين التهاميين والسرويين	١٠٣
	٣- دخول وفود أهل تهامة والسراة في الإسلام	١١٤
خامساً:	الخاتمة	١٢١

أولاً : مقدمة :

إن المراقب لأوضاع الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، يجدها مفككة في شتى مناحي الحياة، فالجوانب السياسية يغلب عليها طابع القبيلة التي تسودها الصراعات والحروب الطاحنة. و الناحية الدينية متعددة العقائد والاتجاهات من يهودية،

(١) هذا البحث نشر ضمن مداورات اللقاء العلمي السادس بجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، الذي عقد في مدينة الكويت في (١٢٠١١ ربيع الأول / ١٤٢٦ هـ / الموافق ٢٠٢٠ أبريل / ٢٠٠٥ م)، ص ١٥٧-٢١١ .

ونصرانية، ووثنية، ومجوسية، وصابئة، ومن لازال على ملة الحنيفية. أما الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، والفكرية العلمية فلم تكن هي الأخرى أحسن حالاً من غيرها^(١).

هكذا كانت حالة جزيرة العرب قبيل وأثناء ظهور الرسول الكريم ﷺ في مكة المكرمة، ويوم بدأ دعوة قومه ﷺ وأهل مكة إلى هذا الدين العالمي الذي جاء به من عند الله إلى عموم الجن والإنس كافة^(٢). كانت بلاد مكة المكرمة ممثلة في قبيلة قريش أول من تصدى لظهور الرسول ﷺ، فحاربوه، ورفضوا الاستجابة له، بل سعوا إلى تشويه صورته وما جاء به إلى عموم قبائل الجزيرة العربية، والى كل وافد إلى بلادهم للحج أو التجارة وغيرها^(٣).

والبلاد المحاذية لمكة المكرمة من الجنوب والممتدة إلى صنعاء وعدن كان يطلق عليها اسم بلاد اليمن، وذلك لسبب وقوعها إلى الجنوب من مكة المكرمة^(٤). ولسنا في هذه الدراسة معنيين بالحديث عن مصطلح بلاد اليمن في العهود السابقة لظهور الإسلام، أو حتى أثناء عصور الإسلام المختلفة^(٥)، لكننا نسعى إلى التركيز على وضع بلاد تهامة والسراة الواقعة بين حواضر اليمن الكبرى (صنعاء، وعدن، وصعدة) وبين مدن الحجاز الرئيسية (مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف)، وبخاصة في عهد الرسول ﷺ، فندرس ما المقصود ببلاد تهامة والسراة ؟ ثم كيف كانت أوضاعها

(١) لمزيد من التفصيلات عن أحوال عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام، انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: جامعة بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) (عشرة مجلدات)، السيد عبدالعزيز سالم. دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، د.ت.).

(٢) المراجع نفسها، وفي عمومية رسالة الإسلام، قال الله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (١٠٧) سورة الأنبياء .

(٣) انظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقاف وآخرين (بيروت: دار القلم، د.ت.)، ج ٢، ص ٣ وما بعدها، شمس الدين: أبو عبد الله محمد، المعروف بـ (ابن القيم الجوزية) زاد المعاد في هدي خير العباد. تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ط ٤، ج ٣، ص ٦٩، ١٢.

(٤) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ج ٥، ص ٤٤٧، ٤٤٩، عبد الله عبد العزيز البكري. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ط (٣)، مج (٢)، ج ٤، ص ١٤٠١.

(٥) للاطلاع على تاريخ بلاد اليمن قبل الإسلام وبعده: انظر: جواد علي، المفصل، ج ٢، ص ٧٢ وما بعدها، السيد عبدالعزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، ٨٥، ١٥٠. عصام الدين الفقي، اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول (القاهرة: دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص ١٨ وما بعدها.

السياسية والحضارية قبل ظهور الإسلام؟ وكيفية بداية اتصاتهم بالرسول ﷺ في العهد المكي؟ وما هي الأساليب التي سلكها الرسول ﷺ معهم لإبلاغهم دعوة الإسلام؟ وكيف كانت استجابتهم لهذه الدعوة؟ خلال ذلك العهد؟ ثم نركز على أوضاعهم السياسية والدينية في العهد المدني، وما هي الوسائل التي اتبعتها الرسول ﷺ لدخولهم في الإسلام، ويمكننا تحديدها في ثلاثة اتجاهات، هي: (١) دعوتهم عن طريق إرسال الدعاة والرسائل. (٢) إرسال البعوث والحملات والسرايا إلى بلادهم. (٣) ذهاب وفودهم طواعية إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامهم.

ثانياً : تهامة والسراة جغرافياً وقبلياً عند ظهور الإسلام :

١- تهامة والسراة جغرافياً :

تهامة : هي الأرض المنخفضة الواقعة بين ساحل البحر الأحمر من الغرب وجبال السروات من الشرق، وتمتد من أرض الحجاز، وربما من بلاد الشام حتى بلاد اليمن، وتتفاوت في اتساعها وضيقها من مكان إلى آخر. والذي يهمنا في هذه الدراسة، هو الجزء الأوسط من بلاد تهامة الممتدة من جنوب مكة المكرمة إلى بلاد جازان وزبيد وما حولها^(١).

أما أرض السراة وجمعها سروات، فهي المرتفعات الجبلية الممتدة من الشام إلى اليمن، والمطلّة على بلاد تهامة، التي يطلق عليها أيضاً اسم "جبال الحجاز" وأحياناً "جبال السروات". وهذه الجبال مثار جدل عند كثير من الباحثين في التراث الإسلامي، وبخاصة حول تسميتها، وحدودها الشمالية والجنوبية، وأحياناً الشرقية والغربية وأقسامها. وهذه الخلافات حول هذه المرتفعات ليس موضوع حديثنا. وإنما الذي يعنينا القسم الأوسط من هذه المرتفعات الموازي للجزء التهامي المذكور آنفاً الممتد من الطائف شمالاً إلى نجران وصعدة جنوباً. وهذا الجزء لا يختلف عليه اثنان فهو واسطة العقد لبلاد السروات، بل إن عدداً من كتب التراث الإسلامي أطلقت على سكان هذه البلاد اسم "السرو" أو "السرويين" وعلى بلادهم اسم "بلاد السراة" وأحياناً "السروات" لأنه يعيش بها عدد من القبائل التي استوطنتها من قبل الإسلام^(٢)، وتسمت الأرض

(١) انظر: تفصيلات أكثر عن تهامة، ياقوت الحموي، معجم، ج٢، ص ٦٤-٦٣، البكري، معجم، مج (١) ج١، ص ٢٢٢، جمال الدين أبو الفضل بن منظور. لسان العرب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٢، ص ٥٩ (تهم).

(٢) للاطلاع على العديد من المصادر والمراجع التي تعرضت لبلاد السراة من حيث التسميات والتركيبة الجغرافية والبشرية، انظر: عبدالله بن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك. تحقيق أم. دي خويه (ليدن: مطبعة برييل، ١٨٨٩م) ص ١٢٣-١٤٤، الحسن بن أحمد الهمداني،

باسم القبيلة القاطنة لها، فيقال مثلاً، من الشمال إلى الجنوب: سراة الطائف، يليها سراة عدوان، فسراة فهم، ثم سراة بجيلة، وسراة دوس أو غامد وزهران، فسراة خثعم، وتشمل بلاد شمران، وعليان، وبلقرن، ثم سراة الحجر وتشمل قبائل بنو عمرو وبنو شهر، وبللسمر، وبللحمر، وسراة عسير، ويطلق عليها قديماً (سراة عنز) ثم سراة جنب المدحجية، وهي معظم بلاد قحطان الجنوب في يومنا الحالي، وسراة همدان وخولان في بلاد صعدة ونجران^(١).

٢- تهامة والسراة قبلياً عند ظهور الإسلام.

إن أرض تهامة والسراة قبيل وأثناء نزول الوحي على رسول الله ﷺ كانت مأهولة بالسكان العرب القحطانية والعدنانية. ولو حاولنا تقصي جميع القبائل والعشائر التي كانت تستوطن هذه البلاد آنذاك، فالحديث سوف يطول بنا وبخاصة ما يدور حول أنساب وتاريخ مجيء كل عشيرة أو قبيلة إلى موطنها الذي استوطنت به، وجاءها الإسلام وهي فيه^(٢)، ولكن نكتفي بذكر أسماء وموقع القبائل الكبار في هذه البلاد، التي تندرج تحتها عشائر وقبائل صغيرة، ونبدأ من الجنوب على النحو التالي:

أ. قبيلة مذحج:

هو مذحج بن أد بن زيد بن عمر بن عريب بن زيد بن كهلان، ويقال إن مذحجاً يسمى أيضاً مالكا^(٣)، وهي إحدى القبائل الكهلانية الكبرى، لها فروع متعددة وديار

صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوخ (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٥٨، ٥٩، ٩٨-١٠٠، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق أيمن فؤاد سيد (القاهرة: المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، د.ت) ص ١٤٩-١٧٠، مج ١، ج ١، ص ٨٠، غيثان بن علي بن جريس. "بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني" مجلة الدارة، عدد (٣) سنة (١٩) (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ص ١١١، ٧٦، للمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيط (١٠هـ/١٧٠ق-٧ق/١٦م). الرياض: مطابع العبيكان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ج ١، ص ٢١ وما بعدها. عبدالله الوهبي. "الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب" مجلة كلية الآداب-جامعة الرياض. (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ج ١، ص ٥٣-٧٠، صالح أحمد العلي "تحديد الحجاز عند المتقدمين" مجلة العرب (١٣٨٨هـ/١٩٧٨م)، ج ١، ص ٩١.

(١) انظر الهمداني، صفة، ص ٩٩ وما بعدها، ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ١، ص ٢٣. وما بعدها، وللمؤلف نفسه نجران: دراسات تاريخية حضارية (١٠هـ/٧ق-٧ق/١٠م). الرياض: مطابع العبيكان، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ج ١، ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع. اليمن في صدر الإسلام (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ص ٢٣ وما بعدها.

(٣) أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي. نسب معد واليمن الكبير. تحقيق ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ج ١، ص ٢٦٧، عبدالرحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون. تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ج ٢، ص ٣٠٧، ابن جريس، نجران، ج ١ ص ٣٦، عبدالرحمن الشجاع، اليمن، ص ٣١.

واسعة، تمتد من الجنوب الشرقي لمدينة صنعاء إلى بلاد تثليث شمالاً^(١)، وتميل إلى جازان غرباً، كانت ذات بأس ومنعة، فكانت تغير على أواسط نجد وعلى من جاورها من القبائل الكبار، فخشيته القبائل وهابتها، والشرف والمنعة والرئاسة فيها لبني الحارث بن كعب ببلاد نجران، ومن عشائرها في بلاد السراة زبيد، التي ينتسب إليها صاحب الصمصامة، عمرو بن معد يكرب الزبيدي، كانت تقطن في بلاد تثليث وامتدخلة مع بلاد خولان. وتعد زبيد جزءاً من (سعد العشيرة) الذين نزلوا بلاد تهامة في نواحي جازان وما جاورها^(٢). كما تأتي عشيرة صداة المذحجية بجوار بني الحارث بن كعب في نجران من الشمال^(٣).

ب. قبيلة همدان :

على وزن فعلان من قولهم همدت النار إذا سكن اشتعالها وهو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة، يصل نسبه إلى كهلان بن سبأ^(٤). وهي من القبائل الكبيرة في الأجزاء الجنوبية السروية وتشمل قسماً كبيراً من شرق صنعاء وشمالاً إلى بلاد صعدة ونجران، وتنقسم إلى فرعين رئيسيين هما : حاشد وبكيل، وتشترك في بعض المواطن مع من جاورها من القبائل مثل مذحج، وحمير، وخولان^(٥).

ج. قبيلة حمير :

تستوطن جنوب شرق اليمن، وربما أطلق عليها اسم (سرو حمير) وهذه القبيلة لا تدخل ضمن حديثنا، إلا أنها تجاور قبائل همدان ومذحج من الجنوب وتمتد بلادها إلى أرض حضرموت، وتعد هذه القبيلة وارثة لملك حمير القديمة التي كانت تملك اليمن كله^(٦).

(١) المصادر والمراجع نفسها.

(٢) المصادر والمراجع نفسها.

(٣) الهمداني، صفة، ص ٥٩، حاشية رقم (٢)، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، جمهرة أنساب العرب (بيروت دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م) ص ٤١٢، محمد علي الأكوغ، الوثائق السياسية اليمنية من قبل الإسلام إلى سنة (٣٢٢) (بغداد : دار الحرية، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص ٨٩.

(٤) ابن منظور، لسان، ج ١٥، ص ١٢٩-١٣٠، أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل، تحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة : المطبعة السلفية، ١٣٦٨هـ) ج ١٠، ص ١٠١.

(٥) الهمداني، صفة، ص ٩٩، ٢٣٩، ٢٤٧، المؤلف نفسه، الإكليل، ج ١٠، ص ٦٥، ٧٦، ١٩٠، ٢٢٧، ٢٥٢.

(٦) قبيلة حمير ربما سميت (سرو حمير). والسرو بفتح أوله وسكون ثانية على وزن الغزو. والسرو من الجبل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر. انظر: ياقوت الحموي، معجم، ج ٣، ٢١٨٢١٤، للمزيد انظر: الهمداني، صفة ٧١، ١٧٦ وما بعدها، أحمد بن عبدالله الرازي. تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمري، وعبد الجبار زكار (بيروت : د. ن، ١٩٧٤م) ص ١٤٤ وما بعدها، أبو محمد الحسن الهمداني. الإكليل. تحقيق محمد الأكوغ (القاهرة : مطبعة السنة

دقبائل خولان :

تسبب إلى خولان بن عمرو بن إسحاق من قضاة، وهو بطن من كهلان القحطانية يسكنون مجاورين لهمدان ومذحج وموطنهم صعدة، وتمتد بلادهم إلى تهامة من ناحية الغرب، وإلى وادعة من جهة الشرق، ويطلق عليهم خولان قضاة خلاف خولان بن عمرو، الذين يطلق عليهم خولان العالية القاطنين شرق بلاد صنعاء، والممتدة بلادهم إلى بلاد مأرب^(١).

هـ- القبائل التهامية :

إن معظم أجزاء تهامة الواقعة إلى جنوب مكة تسكنها قبائل كنانة ويخالطها بعض القبائل العدنانية والقحطانية^(٢)، وكلما اتجهنا إلى الجنوب ناحية جازان وما يأتي جنوبها نجد انتشار عدد من القبائل مثل العكيون نسبة إلى عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد من قحطان في وادي سهام ورمع، وينسب إلى هذه البلاد مخلاف (عك)، وتتصل بلادهم ببلاد حكم ابن سعد العشيرة في منطقة جازان^(٣)، وتتصل ببلاد مذحج ونجران في الجبال^(٤). ويأتي إلى جنوبهم الأشعريون في منطقة واسعة تضم بلاد زبيد وما حولها^(٥).

المحمدية، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ج٢، ص١٤٣ (الحاشية).

(١) للمزيد انظر: أبو عبد الله بهاء الدين محمد الجندي. السلوك في طبقات العلماء والملوك. تحقيق محمد الأكوخ (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ج١، ص٢٩٠، الهمداني، صفة، ص٢٣٥، ٢٤٨، ٢٥٠، المؤلف نفسه، الإكليل، ج٢، ٢٧٥، ج١٠، ص٧٢، ١٣٥، ١٣٦، الرازي، تاريخ مدينة صنعاء، ص٣٧.

(٢) للاطلاع على أسماء القبائل المنتشرة في تهامة انظر: الهمداني، صفة، ص٧١، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ياقوت، معجم، ج٢، ص٢٢٢، ج٣، ص٦٨، ٢٨٩، ج٥، ص٦٧، عمر رضا كحالة. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ط(٢) ج١، ص٣٠، ٣١، ج٢، ص٨٠٢، ج٣، ص١٠٤٢.

(٣) الهمداني، صفة، ص٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ٧٠، ٢٥٩، عرام بن الأصبغ السلمي، أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى. تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) ص٤٠١ وما بعدها، ياقوت، معجم، ج٢، ص٢٨٠، ج٥، ٢٠٩.

(٤) للمزيد انظر: ياقوت، معجم، ج٢، ص٦٨، ٤٤٠، الهمداني، صفة، ص٧٦ (الحاشية)، ٢٥٨، عمر كحالة، معجم، ج١، ص٢٨٦، محمد علي الأكوخ. اليمن الخضراء مهد الحضارة (القاهرة: مطابع السعادة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ص١٨٢.

(٥) الأشعريون: هم ولد الأشعر وهو نبت بن أدد من كهلان بن سبأ، منهم أبو موسى الأشعري. وللمزيد انظر: ابن حزم جمهرة، ص٣٩٧، ياقوت، معجم، ج٢، ص١٤٢، ١٤٣، ج٢، ص٢٨٩، ج٥، ص٦٧. وزبيد: بفتح الزاي وكسر الباء كان اسما لواد فيه قرية تسمى الخصيب، ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به. ثم أصبح هذا الاسم يطلق على مدينة عظيمة قريبة من البحر الأحمر وأصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الزيادية. انظر ياقوت، ج٢، ١٢١، عبد الرحمن بن الدبيع. بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد. تحقيق عبد الله محمد الحبشي. (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، د. ت، ص٣٤، ٣٥).

و. قبائل بلاد السراة

الواقعة بين نجران جنوباً وبين الطائف شمالاً المسماة بلاد السراة أو أهل السراة نسبة إلى جبال السروات المترابطة بعضها مع بعض، وتمتد إلى قعر بلاد اليمن جنوباً وإلى أطراف بلاد الشام شمالاً. وهذه الجبال مأهولة بالسكان الذين أغلب أصولهم من قبيلة الأزد نسبة إلى أزد بن الغوث من كهلان القحطانية. وقبيلة الأزد هاجرت من بلاد اليمن بعد انهدام سد مأرب، وانقسمت إلى فروع عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها^(١)، ومن الفروع التي استقرت في بلاد السراة. أزد شنوءة ومنازلهم شرق السراة في أجزاء من أودية تثليث، وبيشة، وتربة، وبعض أعالي هذه الأودية تسكنها قبائل من خثعم وبجيلة^(٢)، وفروع من قبائل مذحج^(٣). كما استوطنتها عشائر غامد وزهران وهي فرع رئيسي من الأزد عرفوا باسم (أزد السراة) وربما أطلقت عليهم بعض المصادر الإسلامية المبكرة (أهل السراة) أو (السرو) أو (السرليون)^(٤). وبالتالي فالقبائل القاطنة في أرض السروات معظمها قبائل يمانية سواء كانت أزدية، أو مذحجية أو كهلانية أو غيرها^(٥)، ولا تخلو من وجود بعض الفروع العدنانية بينها وقد أشار الهمداني في كتابه: **صفة جزيرة العرب**، إلى أغلب مواطنها ومسمياتها وبخاصة في البلاد الممتدة من صعدة إلى الطائف، فذكر قبائل مذحج ومن ضمنها همدان ويام، وكذلك جنب (قحطان الحالية) وعنز (عسير) والحجر (قبائل بني شهر وبني عمرو وبللسمر وبلحمر)، ودوس، وغامد، وخثعم (شهران العريضة) وبجيلة، وبارق، وغافق، وأمع، وغيرها^(٦).

(١) انظر: البكري، معجم، مج ١، ج ١، ص ٩٠، ابن حزم، جمهرة، ص ٢٣٠، ٤٧٢، ابن الكلبي، نسب معد، ج ١، ص ١٢١، ٢٦١، ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٢٨٥ وما بعدها. والأزد تنسب إلى أزد بن النبت بن مالك بن كهلان بن سبا بن يعرب بن يشجب بن قحطان، انظر: ابن حزم، ص ٢٢٩، ٤٨٤، أبو الحسن علي السعدي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. ترتيب يوسف داغر (بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) مج ١، ج ٢، ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢) بجيلة: يفتح الباء وسكون الباء، قبيلة من ولد أنمار من قحطان وسموا بأهمم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وكانوا متحالفين مع ولد أهمم خثعم. ابن حزم. جمهرة، ص ٢٨٧، البكري، معجم، مج ١، ص ١، ج ١، ص ٦١، ٦١، ٥٨، كحالة، معجم، ج ١، ص ٦٢.

(٣) عبد الملك بن قريظ الأصبغي، تاريخ العرب قبل الإسلام. تحقيق محمد حسن آل ياسين (بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)، ص ٧٧ وما بعدها، ابن الكلبي، نسب معد ج ١، ص ٢٦٨ وما بعدها، ابن خلدون، ج ٢، ص ٣٠٦، السعدي، مروج، مج ١، ج ٢، ص ١٧٢. ابن حزم، جمهرة، ص ٢٣٠، ٤٧٢، كحالة، معجم، ج ١، ص ١٨١٥.

(٤) الهمداني، صفة، ص ١١٩ وما بعدها، ابن حزم، أنساب، ص ٢٣٠. ٤٧٢، الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ٥٤. ٥٢، ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ١، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٥) الهمداني، صفة، ص ١١٦. ١٢٠، كحالة، معجم، ج ١، ص ٢٢، ابن جريس، دراسات، ج ١، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٦) المصادر والمراجع نفسها.

وعند سفوح السروات الغربية، المتصلة بالسهول التهامية نلاحظ استيطانها بعدد من العشائر والأفخاذ القبلية التي هي في الأساس من أصول القبائل الرئيسية في أعالي بلاد السراة، وربما تركوا مواطنهم الأصلية وذهبوا إلى السهول التهامية بحثاً عن موارد الرزق، ولازال أغلبهم إلى اليوم لهم نواب وشيوخ لكنهم يعودون جميعهم إلى شيوخهم الرئيسيين في السروات. وكلما اتجهنا نحو ساحل البحر الأحمر نجد القبائل أكثر اختلافاً في نسبها عن القاطنين في السهول الواقعة عند سفوح السروات الغربية، فنجد أغلبها قبائل عدنانية، بل لها أحلاف واتصالات قبلية فيما بينها، وأحياناً نجد بينها وبين القبائل الداخلية صلات نسبية، ولكن - كما ذكرنا - أن القبائل التهامية التي عند سفوح السروات تعود في أنسابها إلى القبائل القحطانية^(١).

ز. نصارى نجران :

كانت بلاد نجران بعامة مستوطنة بعدد من القبائل اليمانية المذحجية، والهمدانية، والحميرية. لكن الزعامة - كما ذكرنا - كانت في يد بني الحارث بن كعب^(٢). ولمدينة نجران الرئيسية وضع خاص، حيث كان أهلها يدينون بالنصرانية، وكان المسؤولون عنها يستمدون نفوذهم وسير أمورهم من دولة الروم. ورئاستهم في ثلاثة أشخاص، الأول: ويلقب بالأسقف، والثاني: (العاقب) وهو أمير القوم ولا يعملون شيئاً إلا برأيه، والثالث: (السيد) وهو صاحب رحلهم أي المتولي شئون الأمن والدفاع فيهم. وكانت دولة الروم حريصة على رعايتهم وتمويلهم بالأموال والهبات والهدايا كي يبقوا موالين لهم ويقوموا على بناء الكنائس ونشر الدين النصراني هناك، وبالتالي فمدينة نجران كانت بمثابة شبه مستعمرة للرومان في جزيرة العرب^(٣).

هكذا كانت التركيبة البشرية في بلاد تهامة والسراة، فالغالب عليها هو الهيمنة القبلية، وكل قبيلة منفصلة عن غيرها، فلا يجمعها جامع ولا تربطها رابطة، بل كانت كل القبائل ضد بعضها بعضاً. والتاريخ القديم مليء بالصراعات القبلية بين مذحج وما جاورها من القبائل كهمدان وحمير والأزد. بل نجد أن بحيلة كانت في حروب مستمرة

(١) المصادر والمراجع نفسها. للمزيد انظر: عاتق بين غيث البلادي. بين مكة وحضرموت (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١١ وما بعدها.

(٢) السعودي، مروج، مج ١، ج ٢، ص ١٧٢-١٧٢، الهمداني، صفة، الأكوغ، اليمن، ص ١٥٢، ابن جريس، نجران، ج ١، ص ٣٤ وما بعدها.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج ١، ص ١٦٥، جواد علي، الفصل، ج ٣، ٥٢٢، ٥٢٣، ج ٤، ص ١٩٠، عبد المجيد عابدين. بين الحبشة والعرب (القاهرة: دار الفكر، د. ت)، ص ٤٩ وما بعدها.

مع قبائل خثعم. وكذلك الأزد وخثعم كانت لا تتوقف عن الحروب الطاحنة فيما بينها^(١). ومما يؤكد تمزق القبائل في بلاد تهامة والسراة، وتعدد حروبها وصراعاتها، كثرة وفود تلك القبائل إلى المدينة المنورة عند توافد القبائل العربية إليها لإعلان إسلامها، ثم تعدد السرايا والبعوث التي أرسلها الرسول ﷺ إلى سكان تلك البلاد لمحاربتهم وتأديبهم.

ثالثاً: استجابة بعض أهل تهامة والسراة للإسلام في مرحلة الدعوة المكية :

إن ظهور الإسلام في مكة ثم انتشاره حتى وصل سكان تهامة والسراة الذين كان أغلبهم يدينون بالوثنية، جعل بعضهم يراجعون حساباتهم العقديّة، فيجدون عدم جدوى ما يمتلكون من عادات ومعتقدات، وبدأوا يفكرون بجديّة في الدعوة الجديدة. لكن تصدي قريش لدعوة الرسول ﷺ ومحاربتهم له جعل جميع قبائل الجزيرة العربية بما فيهم التهاميون والسرويون ينتظرون عما يسفر عنه الصراع بين القرشيين والرسول ﷺ وأتباعه. وفي فترة الدعوة المكية لم تجرؤ أي قبيلة أو عشيرة تهامية أو سروية الدخول في الإسلام بل كانوا جميعهم سلبين تجاه الدين الجديد، ما عدا أفراداً كانوا يرتادون مكة للحج أو التجارة وغيرها، وعند سماعهم بظهور الإسلام اعتنقوه، ويمكننا ذكرهم على النحو التالي:

١- قيس بن نمط الهمداني :

يذكر أن النبي ﷺ كان يعرض الدين على الناس في الحج، ويطلب منهم النصرة، فأتاه رجل من همدان، فقال: ممن أنت؟ فقال الرجل: من همدان، قال: فهل عند قومك منعة؟ قال نعم. ثم إن الرجل خاف أن يخذله قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال آتيهم فأخبرهم ثم آتيتك من عام قابل. قال نعم: فذهب وجاء وفد الأنصار من بعده فبايعوا الرسول ﷺ^(٢). ونجد الهمداني يوضح نسب هذا الرجل فيقول: هو قيس بن نمط بن قيس من بني سفيان الهمداني ثم الأرحبي^(٣)، وقد ذهب قيس إلى قومه في بلاد همدان وعاد إلى الحجاز بعد بيعة الأنصار للرسول ﷺ فسماه رسول الله ﷺ بـ (الوفي)^(٤).

(١) ابن حزم، جمهرة، ص ٢٨٧، البكري، معجم، ج ١، ص ٤٠، ٤١، ٥٨، ٦١، ج ٤، ١٢٩٨.

(٢) عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ج ٣، ص ١٤٦.

(٣) الهمداني، الإكليل، ج ١٠، ص ٢٤٠، ٢٤١، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة

(القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، ص ٢٦٢، الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ١٠٠-١٠١.

(٤) المصادر والمراجع نفسها.

٢- عبد الله بن قيس بن أم غزال:

عبد الله بن قيس من قبيلة همدان قابل الرسول ﷺ في موسم الحج وأسلم، ثم وعد الرسول ﷺ أن يوافيه في موسم الحج من العام المقبل، ولكنه قتل وهو في طريقه إلى بلاده على يد رجل من زبيد للثارات التي كانت قائمة بينهم^(١).

٣- أبو موسى الأشعري وبعض قومه:

كان الأشعريون في تهامة يترددون على مكة المكرمة كثيراً، وكان من ضمنهم أبو موسى الأشعري الذي كان حليفاً لبعض رجالات بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف^(٢)، ويذكر أنه رأى الرسول ﷺ في مكة وهو يدعو الناس إلى الإسلام، فدخل الإسلام، ودخل معه بعض إخوانه، ثم عاد إلى بلاده في تهامة ينشر الإسلام بين قومه حتى كانت السنة السابعة للهجرة فهاجر لمقابلة الرسول ﷺ ومعه أكثر من خمسين رجلاً من قومه^(٣).

٤- الطفيل بن عمرو الدوسي:

يعد الطفيل الدوسي أحد مشاهير أزد السراة في بلاد دوس (زهران)، وله علاقات نسب ومصاهرة مع بعض رجالات قريش، ويتردد كثيراً على مكة المكرمة^(٤). وعند ظهور الرسول ﷺ ومناداة الناس إلى الإسلام، يحدث للطفيل ما يرويه لنا عندما جاءه بعض القرشيين فقالوا له: (يا طفيل : إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد عضل بنا (أي اشتد وغلظ) وفرق جماعتنا، وإن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبينه وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلي قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه، قال فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني كرسفاً (أي قطناً) فرقاً (أي خوفاً) أن يبلغني من قوله، وأنا أريد ألا أسمع. قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال فقمتم قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني قوله، فسمعت كلاماً حسناً. قال فقلت في

(١) ابن سعد، ج١، ص ٢٤١، الشجاع، ص ١٠١.

(٢) أبو الحسن عز الدين علي محمد بن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة : دار الشعب، د. ت)، ج٢، ص ٣٦٧.

(٣) المصدر نفسه، للمزيد انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص ٣٥٩، للمؤلف نفسه، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٨م)، ج١٦، ص ٦٦-٦٩.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص ٧٨. ٨١، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، الاستيعاب في أسماء الأصحاب (بهامش كتاب) : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٢، ص ٢٢١ وما بعدها، ابن جريس، دراسات، ج١، ص ٢٩، الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ١٠٦. ١٠٨.

نفسي : واشكل أُمي ! والله إني لرجل شاعر لبيب ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول !! إن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته. قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه. فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فأخبرته بالذي قالوا. ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك، فسمعت قولاً حسناً فأعرض علي دينك وما تأمر به وما تنهى عنه. قال : فعرض علي الإسلام، وتلا القران، قال فوالله ما سمعت قولاً أحسن منه ولا أمراً أعد منه فأسلمت. قلت يا رسول الله إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال اللهم اجعل له آية. " وقال : " ثم دعوت دوساً فأبطأوا عن الإسلام فرجعت إلى رسول الله ﷺ بمكة فقلت: يا رسول الله. إنه قد غلبني على دوس (الزنا) و (الربا) فادع الله عليهم فقال : اللهم اهد دوساً، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم " (١).

٥- ضماد بن ثعلبة الأزدي؛

ضماد الأزدي من أزد شنوءة من بلاد السراة، كان معروفاً بمكة من كثرة قدومه إليها، وعنده بعض المعارف الطبية، وربما كان ارتياده مكة للتجارة أو الاستزادة من العلوم والمعارف الطبية، وفي إحدى رحلاته إلى مكة سمع ببعثة الرسول ﷺ، وسمع بعض سفهاء مكة يقولون إن محمداً قد أصابه مس، أي جنون^(٢). فقال (لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال فلقيته. فقال : يا محمد إني أرقى من هذا الريح^(٣)، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له. وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد) فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس

(١) المصادر والمراجع نفسها. للمزيد نظر: ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٥٢١، محمد بن حبيب البغدادي، كتاب المنق في أخبار قريش. تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ١٩٩-٢١١، جمال الدين بن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي (حلب: دار الوعي، ١٢٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ج١، ص ٦٠٠-٦٠٤.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص ٢١٠.

(٣) المراد بالريح هنا الجنون ومس الجن وسمي بالأرواح أو الريح لأنهم لا يبصرهم الناس فهم كالروح والريح، محيي الدين أبو زكريا النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (القاهرة : المطبعة المصرية، د.ت) ج٦، ص ١٥٧.

البحر^(١). فقال هات يدك أبايعك على الإسلام، قال فبايعه ثم قال: رسول الله ﷺ وعلى قومك؟ قال وعلى قومي^(٢).

ونجد أن دين الإسلام تسلل إلى قلوب بعض السريين والتهاميين، وهذه تعد من البشائر الأولى التي سوف تمهد الطريق لدخول جميع سكان تهامة والسراة في الإسلام، لكن ليس قبل هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة، وتأسيس العاصمة الأولى لدولة الإسلام.

رابعاً : انتشار الإسلام في تهامة والسراة خلال مرحلة الدعوة المدنية :

بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة واستقر بين ظهراي الأنصار، حول الدعوة الإسلامية إلى أساليب تحتاج إلى القوة وجهاد الكفار في كل مكان. وسلك مع أهل تهامة والسراة، كما سلك مع غيرهم، عدداً من الوسائل مثل :

١- الدعوة عن طريق الدعاة والرسائل :

بدأ الرسول ﷺ ينشر الإسلام إلى سكان تهامة والسراة وعموم بلاد اليمن عن طريق أولئك الرجال الأوائل الذين دخلوا الإسلام في مرحلة الدعوة المكية أمثال : الطفيل، وضام وغيرهما، فكان يأمرهم ﷺ بعد إعلان إسلامهم بالعودة إلى قومهم كي يدعوهم للإسلام، ولم تأت السنة السابعة للهجرة إلا وطلائع أهل تهامة والسراة قد بدأوا يفدون على المدينة معلنين إسلامهم بين يدي رسول الله ﷺ^(٣). وبعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، عزم الرسول ﷺ على إرسال بعض صحابته دعاة لدين الإسلام، وكان يرسل معهم كتباً تقرأ على من يأتون اليهم. ويعد معاذ بن جبل من أوائل صحابة الرسول ﷺ الذين أرسلوا إلى عموم بلاد اليمن في أواخر السنة التاسعة للهجرة، وقد ودعه الرسول ﷺ ومعه لفييف من الصحابة وأوصاه في كلام طويل بتقوى الله عز وجل وتوخي حسن المعاملة والعدل بين الناس، ومما قال ﷺ : ((يا معاذ!! إذا قدمت عليهم فزين الإسلام بعدلك وحلمك وصفحك وحسن خلقك، فإن الناس ناظرون إليك وقائلون خيرة رسول الله، فلا تزل لك سقطة يستريب لها أحد في حلمك وعدلك فإن الرسل من المرسلين))^(٤). ويذكر في عدد من المصادر الإسلامية المبكرة بأن معاذ كان مرسلًا إلى بلاد اليمن، وبخاصة إلى قبيلة حمير، وهذا أمر لا يتعارض

(١) ناعوس البحر أي : قاموس البحر، وهو وسطه ولجته. انظر: ابن منظور، اللسان، ج ١٤، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) النووي، صحيح مسلم، ج ٦، ١٥٨، ١٥٦، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٢، ص ٢١٧.

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠، المؤلف نفسه، فتح الباري، ج ٧، ص ٧٨-٧٧، المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٢٩٦، ابن الأثير، أسد الغابة، ج ١، ص ٤٠٤.

(٤) أبو الحسن علي بن الحسين الخزرجي. الكفاية والأعلام. تحقيق الفصول الخمسة من هذا الكتاب، تحقيق راضي دغفوس تحت اسم: اليمن في عهد الولاة (تونس: منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب، ١٦٧٩م)، ص ٤٢-٤٣.

مع مهمة معاذ الرئيسية. حيث كان يحمل كتباً ملوك حمير من رسول الله ﷺ يدعوهم فيها للإسلام، لكنه أيضاً كان يحمل كتباً ودعوة عامة إلى عموم الأقسام التي سوف يقابلها في الجبال من الطائف حتى صنعاء، فكان يتوقف على طول محطات طريقه في أجزاء عديدة من بلاد السراة يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في دينهم، بل كان ينتقل من مكان لآخر لإبلاغ رسالة الإسلام إلى كل الناس الذين يمر عليهم^(١).

ونجد أن وضع الدعوة الإسلامية في بلاد السراة يوم ذهب معاذ إلى اليمن أصبح أفضل حالاً مما كان عليه من قبل، وذلك لأسباب عديدة نذكر منها: (أ) انهزام قبيلة قريش، ودخول أهل مكة في الإسلام مما جعل السريين والتهاميين يعزمون على المبادرة والدخول في الإسلام، لأن قريشاً أصبحت لا تشكل لهم خطراً لضعف شوكتها العسكرية والإدارية وبخاصة عندما كانوا كثيرون التردد على مكة لممارسة التجارة فيها. (ب) أصبح أهل السراة مسلمين منذ مرحلة الدعوة المكية، لأن بعض رجالهم ووفودهم دخلوا الإسلام قبل فتح مكة، كما سيأتي معنا، ولكن عموم سكان هذه البلاد جاءوا إلى المدينة زرافات ووحدانا بعد السنة الثامنة للهجرة، ودون عناء يذكر مع سرايا وبعوث الرسول ﷺ التي أرسلها إليهم بعد عام الفتح^(٢).

وإذا كانت المصادر تشير إلى أن معاذاً كان مرسلأً إلى أهل الجبال الممتدة من الطائف حتى صنعاء، فما هو حال أهل تهامة الممتدة من مكة المكرمة حتى زبيد وربما عدن؟ سبق وأن أشرنا إلى أن الأشعريين كانوا يفدون على الرسول ﷺ في مرحلة الدعوة المكية، وأن أبا موسى الأشعري من أوائل الداخلين في الإسلام، ومن الوافدين على رسول الله ﷺ في المدينة في السنة السابعة للهجرة^(٣). ولذلك فقد اختاره الرسول ﷺ رسولاً إلى الجزء التهامي، وبخاصة بلاد حكم بن سعد العشيرة، والأشعريين، وعك وما حولها. وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى إلى اليمن ثم أتبعه معاذاً^(٤). ويذكر أن الرسول ﷺ بعثهما وأوصاهما

(١) المصادر نفسها، وللمزيد انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص١٢٤، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢، ص٣٥٨، (هامش الإصابة)، الأوكوع، ص١٢٨.

(٢) محمد بن عمر الواقدي. كتاب المغازي. تحقيق مارسدن جونس (بيروت: عالم الكتب، د.ت) ج٢، ص٧٢٢، علي بن الحسن المسعودي. التنبيه والإشراف (بيروت: دار الهلال، ١٩٨١م) ص٢٤٢. خليفة بن خياط. تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٧٨، ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢٥٢١، ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج٢، ص٦٢٤-٦٢٨.

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص٣٦٧، ابن عبد البر، الاستيعاب (هامش الإصابة) ج٢، ص٢٧١، ابن حجر، فتح الباري، ج١٦، ص٦٦-٦٩.

(٤) انظر ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص٣٦٠، للمؤلف نفسه، فتح الباري، ج١٦، ١٧٩، النووي، شرح صحيح مسلم، ج٢، ص٢٠٧-٢٠٩، ويذكر ابن حجر قوله (كان أبو موسى واليا على الجهة السفلى من اليمن) ويقصد بذلك الأجزاء التهامية المنخفضة المطلة على البحر الأحمر والممتدة من جنوب مكة المكرمة إلى

بقوله: ((أدعوا الناس وبشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا))^(١). ويفهم من الحديث أنهما ذهبا معا في وقت واحد وطريق واحد^(٢)، وهذا غير صحيح، كما ذكر أحد الباحثين المتأخرين^(٣)، وعلل أن أبا موسى أرسل ثم أرسل بعده معاذ (رضي الله عنهما)، كما ورد في الحديث السابق، ثم إن الرسول ﷺ ودع معاذاً عند خروجه إلى بلاد اليمن ومشى معه إلى خارج المدينة وهو يسدي له العديد من النصائح التي يجب عليه اتباعها في دعوته، ولم يذكر أن أبا موسى كان معه أثناء المغادرة. وتستطيع القول أن كلا من معاذ وأبي موسى (رضي الله عنهما) ذهبا إلى بلاد تهامة والسراة حتى وصلا أرض اليمن، لكن معاذاً كانت مهمته دعوة أهل الجبال من الطائف حتى صنعاء وصعدة والجند، أما أبو موسى فمهمته دعوة أهل تهامة من مكة حتى بلاد جازان وزبيد وعدن وما حولها، ثم إن ذهابهما كان في السنة التاسعة للهجرة^(٤). إلا أن أبا موسى خرج قبل معاذ بن جبل، ومن حرص الرسول ﷺ أنه كان يوصي رسله وينصحهم بما يجب لهم وعليهم، وكان في معظم الأحيان يرسل بعض صحابته إلى بلادهم وأقوامهم، فأبو موسى الأشعري أرسل إلى قومه الأشعريين وغيرهم^(٥).

كما أرسل الرسول ﷺ كتاباً إلى نصارى نجران وبخاصة أساقفتهم، فقال فيه: ((بسم الله من محمد رسول الله إلى أساقفة نجران: بسم الله فإني أحمد اليكم إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، أما بعد ذلكم فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أنتم أبيتم فالجزية، وإن أبيتم أذنتكم بالحرب والسلام))^(٦).

عدن، انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٢٦٠، وللمؤلف نفسه، فتح الباري، ج ١٦، ص ١٧٩، ج ٢٦، ص ١٠٤-١٠٥

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ١٧٠-١٧١، ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦، ص ١٧٩.
(٢) المصادر نفسها.

(٣) انظر: محمد الأكوغ، الوثائق السياسية اليمنية، ص ١٢٩، وفي رواية (أن معاذاً وأبا موسى خرجا معاً فكان طريقهما على الطائف، فترية، فبيشة، ثم افترقا فنزل أبو موسى طريق التهائم، ومعاذ طريق الجبال). وهذا القول غير ممكن لبعده المسافة بين الناحيتين، والصحيح أن أبي موسى سلك طريق الساحل، ومعاذ سلك طريق الجبال.

(٤) ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٢٦٠، وللمؤلف نفسه، فتح الباري، ج ٧، ص ١٢٤، عمارة بن علي اليمني، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد. تحقيق محمد الأكوغ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص ٧٢، الرازي، تاريخ صنعاء، ص ٢٢٢، ٢٢٣، الهمداني، صفة، ١٤٤، الخزرجي، الكفاية، ص ٤٢.

(٥) للمزيد انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج ١٢، ص ٢٢٧-٢٢٩، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٢، ص ٢٧٢ (بهامش الإصابة) أبو جعفر محمد بن حبيب. المحبر. أخرجه وصححه محمد حميد الله، وإيلزه ليختين شتير (جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٦٠هـ/١٩٤٢م)، ص ١٢٦.

(٦) أحمد بن يعقوب. تاريخ يعقوبي (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ج ٢، ص ٨١، الفقي، ص ٢٥٤، الشجاع، ١٣٨، ١٣٦.

وبعد وصول كتاب الرسول ﷺ إلى نصارى نجران، وعلموا جدية الرسول ﷺ في مطلبه، اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم، ووصلوا في نهاية الأمر إلى إرسال وفد من أعيانهم إلى الرسول ﷺ ليناقشوه ويعرفوا حقيقة دعوته^(١). وقد اختلفت المصادر في ذكر عدد أفراد الوفد الذين مثلوهم، فمنهم من قال إن عددهم أربعة عشر رجلاً من رؤسائهم وأشرفهم^(٢). ومنهم من قال بأن عددهم ستون^(٣)، وآخرون قالوا أربعون^(٤)، وابن خلدون يشير إلى أن عددهم ستون نصرانياً^(٥). وكان من بين أفراد ذلك الوفد رؤسائهم الرئيسيون، وهم العاقب، واسمه عبد المسيح، والسيد ويدعى الأيهم أو شرحبيل، والأسقف واسمه أبو الحارث بن علقمة^(٦). ويبدو أن بعض أفراد هذا الوفد كان يدرك صدق وصحة نبوة الرسول ﷺ، وبخاصة زعيمهم الروحي أبو الحارث بن علقمة^(٧)، لكنهم لا يستطيعون الدخول في دين الإسلام لخوفهم من إمبراطورية الروم التي كانت تغدق عليهم الأموال والهدايا، وتعدهم ممثلين لها في حماية النصارى ودينهم في نجران وعموم اليمن^(٨).

وصل وفد نجران المدينة والرسول ﷺ في المسجد، وكان عليهم ثياب الحبرة، وفي أيدهم وأعناقهم الصليب، ثم أقاموا في المسجد يصلون إلى المشرق، فلم يكلمهم الرسول ﷺ ولم يلق لهم بالاً، وعندما شعروا بذلك جاءوا من اليوم الثاني وعليهم زي الرهبان^(٩)، ثم قابلوا الرسول ﷺ، وناقشوه في أمور عديدة حول السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ثم دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، فلم يقبلوا بذلك. ويورد القرآن الكريم مقابلتهم للرسول ﷺ وما دار بينهما من اختلاف، يقول ابن

(١) محمد سعد. الطبقات، ج ١، ص ٢٥٧، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٥٥، ابن خلدون تاريخ، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٢) ابن سعد، ج ١، ص ٢٥٧.

(٣) الحافظ، شمس الدين الذهبي. العبر في أخبار من غير، (بيروت: د.ن، ١٩٧٤م) ج ١، ص ٥٧٨.

(٤) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ١٨٢، انظر أيضاً أبو الفداء إسماعيل بن كثير. تفسير القرآن الكريم (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ج ١، ص ٢٧٦.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٦) ابن سعد، ج ١، ٢٥٧، ويذكر ابن خلدون في تاريخه (أن اسمه أبو حارثة بن بكر بن وائل) ج ٢، ص ٤٤٧، للمزيد انظر: الذهبي، العبر، ج ١، ص ٥٧٨، ابن كثير، التفسير، ج ١، ص ٢٧٦.

(٧) المصادر نفسها.

(٨) للمزيد انظر: ابن سعد، ج ١، ص ١٦٥-١٦٤، الذهبي، ج ١، ص ٥٨٧، ابن كثير، التفسير، ج ١، ص ٢٧٦، ابن جريس، نجران، ج ١، ص ٧٤-٧٨. للمزيد عن علاقة نجران بالروم، انظر: عابدين، ص ٤٩ وما بعدها، جواد علي، ج ٢، ص ٤٤٩، فاطمة مصطفى عامر. نجران في العصر الجاهلي وعصر النبوة (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٨م)، ص ٢٦.

(٩) البيهقي، تاريخ، ج ٢، ص ٨٢، ابن سعد، ج ١، ص ٢٥٨، جريس، نجران، ج ١، ص ٧٧.

كثير: ((فأنزل الله في قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها))^(١)، ووصل بهم النقاش مع الرسول ﷺ إلى أن تقام بينهم (ملاعنة) أو (مباهلة)^(٢)، وبعد مشاورات فيما بينهم رأوا أن لا يباهلوا رسول الله ﷺ لعلمهم بصدق نبوته، وعادوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: ((لا نباهلك فأنت على دينك ونحن على ديننا...))^(٣)، وصالحهم وكتب لهم كتاباً طويلاً بين فيه أنه حكم فيهم على أن يدفعوا للمسلمين ألفي حلة، ألفاً في رجب وألفاً في صفر من كل عام، واشترط لهم شروطاً كثيرة لهم وعليهم^(٤)، وقد دخل في هذا الصلح اليهود الذين كانوا بنجران فكانوا كالأتباع لهم^(٥).

وبعد كتابة الصلح مع الرسول ﷺ طلبوا منه أن يرسل معهم رجلاً من أصحابه يرضاه لهم ليحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالهم^(٦)، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح (رضي الله عنه) كي يحكم بينهم، وكذلك ليجمع مال الجزية التي فرضت عليهم، وبهذا كان نصارى نجران أول من أعطى الجزية في الإسلام^(٧). ثم بقي رسول الله ﷺ يرسل من قبله بعض أصحابه لتسلم مال هذا الصلح، أو الصدقة المفروضة على المسلمين هناك في كل موسم من مواسم العام. فقد أرسل المغيرة بن شعبه (رضي الله عنه)، وكذلك أرسل كلاً من علي بن أبي طالب، وأبي سفيان (رضي

(١) ابن كثير، التفسير، ج ١، ص ٢٧٦، وللمزيد انظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٨٢، ابن سعد، ج ١، ص ٢٥٧، محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف. تحقيق محمد مرسي عامر (القاهرة: دار المصنف، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ج ١، ص ١٧٧ وما بعدها.

(٢) المباهلة، جاءت من فعل (بهل) والبهل هو اللعن، يقال بهله الله بهلاً أي لعنه، وعليه بهلة الله أي لعنته، ويذكر في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "من ولي من أمور الناس شيئاً فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله" أي لعنته. والمباهلة هي الملاعنة، ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا، ابن منظور، ج ١، ص ٥٢٢.

(٣) ابن كثير، التفسير، ج ١، ص ٢٧٧-٢٧٨، الزمخشري، تفسير، ج ١، ص ١٧٨، والنصاري أقرب في مودتهم للمسلمين من اليهود والمشركين قال الله تعالى (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ). سورة المائدة، آية (٨٢).

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٨٢، البلاذري، فتوح، ص ٧٥-٧٦، ابن سعد ج ١، ص ٢٥٧-٢٥٨، الزمخشري، تفسير، ج ١، ص ١٧٨، علي بن أبي الكرم بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق نخبة من العلماء (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٥) المصادر نفسها.

(٦) المصادر نفسها.

(٧) المصادر نفسها. للمزيد انظر: محمد حميد الله، ص ١٧٥-١٧٦، ابن جريس، نجران، ج ١، ص ٧٩-٨٢.

اللَّهُ عنهما)، وأخيراً عين عمرو بن حزم الأنصاري (رضي الله عنه) والياً عاماً على نجران وما حولها، وكتب ﷺ كتاباً جامعاً بين له فيه ما يجب عليه وعلى أهل نجران من حقوق وواجبات^(١).

٢- إرسال البعوث والسرايا لنشر الإسلام بين التهاميين والسرويين

إن التركيبة الاجتماعية في بلاد تهامة والسراة لم تتغير، وإن كان بعض دعاة الإسلام قد وصلوا إلى بلادهم، وبذلوا جهوداً كبيرة في دعوة الناس إلى الإسلام، إلا أن الوضع القبلي مازال هو النظام السائد في أرجاء البلاد، بل إن بعض القبائل بقيت قبل وبعد فتح مكة تعلن تحديها لهذا الدين الجديد، وتمارس طقوسها الوثنية التي ألفتها وتدافع عنها. وكان الرسول ﷺ يعرف ذلك من خلال رسله الذين كان يرسلهم لتبليغ الإسلام في أصقاع جنوب الجزيرة العربية، ولهذا بدأ يتخذ أسلوب إرسال السرايا والبعوث إلى بعض النواحي المجاهرة بعصيانها وعنادها. فيذكر الواقدي والمسعودي أن الرسول ﷺ أرسل سرية إلى تربة جنوب الطائف، بقيادة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في شهر شعبان في السنة السابعة للهجرة، وكان معه من صحابة الرسول ثلاثون رجلاً، فذهبوا إلى بلاد تربة فوجدوا العشائر قد تفرقت من مواطنها فعادوا إلى المدينة^(٢). وإرسال هذه السرية إلى جنوب الطائف قبل فتح مكة مما يعد نصراً أولياً للرسول ﷺ على المشركين وبخاصة قريش التي لم تعد قادرة على مهاجمة الرسول ﷺ في المدينة، ولا حتى التصدي لأي قوة إسلامية تأتي إليها في عقر دارها. كما أن إرسال قوة صغيرة بهذا الحجم إلى بلاد السراة تعكس قوة الدولة الإسلامية التي أصبحت قادرة على مهاجمة أي قوة مشركة تسول لها نفسها محاربة المسلمين، أو مناصرة قريش المشركين في حروبها القادمة مع الرسول ﷺ.

كما أرسل الرسول ﷺ السرايا جنوب مكة، وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير في بعض نواحي تهامة داغياً وليس مقاتلاً، وقد نفذ أوامر الرسول ﷺ لكن الظروف اضطرته لمواجهة بني جذيمة ودارت الحرب بينهم فقتل بعض رجالهم^(٣). ثم تالت السرايا والبعوث التي أرسلها الرسول ﷺ إلى بعض قبائل بلاد السراة مثل: دوس وصداء، وختعم، وبجيلة، والأزد، وبني الحارث بن كعب الوثنيين، وكانوا على النحو التالي:

(١) المصادر والمراجع نفسها.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص ٧٢٢، المسعودي، التنبيه، ص ٤٢، للمزيد انظر: ابن خياط، تاريخ، ص ٧٨، ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ١، ص ٣١.

(٣) انظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) بيروت: دار سويدان، د. ت.، ج ٢، ص ٦٨٦٦. وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، كانوا يسكنون موضعاً يسمى (الغميصاء) على مقربة من مكة. انظر: ياقوت، المعجم، ج ٤، ص ٢١٤.

أدوس :

تذكر بعض المصادر أن الرسول ﷺ أعاد الطفيل بن عمرو الدوسي (رضي الله عنه) إلى قومه كي يدعوهم إلى الإسلام وبقي بينهم داعياً حتى السنة السابعة للهجرة ثم خرج معه حوالي ثمانين رجلاً بما فيهم أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه، فقدموا على الرسول ﷺ في المدينة وأعلنوا إسلامهم^(١). والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل جميع قبيلة دوس دخلوا الإسلام قبل فتح مكة ؟ والجواب لا، لأننا نجد بعض الروايات تذكر أن الرسول ﷺ أرسل الطفيل بن عمرو الدوسي مع بعض قومه المسلمين بعد معركة حنين في السنة الثامنة للهجرة لمحاربة من بقي على الوثنية في بلاد غامد وزهران ودوس^(٢)، وأوصاهم بهدم صنم عمر بن حممة الدوسي، الذي يعرف بذي الكفين، فلم يكن على الطفيل إلا أن يطيع أمر الرسول ﷺ ويطلب النصيحة، فقال ﷺ للطفيل : ((ائس السلام، وابذل الطعام، واستحي من الله كما يستحي الرجل ذو الهيئة من أهله^(٣)، إذا أسأت فأحسن إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين))^(٤)، ثم خرج الطفيل بمن معه فحارب بعض المشركين في بلاد دوس وما حولها، ثم هدم صنم ((ذا الكفين))، وجعل يحشو النار في جوفه ويقول :

ياذا الكفين لست من عبّادك ميلادنا أقدم من ميلادك
أنا حشوت النار في فؤادك

وبعد ذلك رجع الطفيل وبعض قومه وعددهم أربعمئة فقابلوا الرسول ﷺ في الطائف بعد مقدمه إليها بأربعة أيام وكان معهم ((دبابة ومنجنيق))^(٥). ويتضح من هذه السرية التي أرسلها الرسول ﷺ مع الطفيل وكذلك السيرايا التي سبقتها مع عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد (رضي الله عنهما) ليست إلا نذيراً لأهل تهامة والسراة وعموم بلاد اليمن التي يجب عليها الوعي بالمستوى الذي وصلت إليه الدعوة الإسلامية في الحجاز، ولسان الحال يكاد يقول : عليكم بدخول الإسلام، وإلا فالحرب والقتل هو مصيركم .

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢٥٠-٢٥١. ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص ٦٠٠-٦٠٤، ابن جريس، ج١، دراسات، ٢٩، ٣٢، الشجاع، ص ١٩١-١٩٢

(٢) المصادر والمراجع نفسها .

(٣) ذو الهيئة : أي ذو الصورة والشكل الحسن، أو ذو الوفاق، وتقول هنت للأمر أهى، هيئة، وتهيات، تهيؤاً، والهيئة : الشارة، فيقال : فلان حسن الهيئة، انظر: ابن منظور، اللسان، (هياً) : ج١٥، ص ١٧٠،

(٤) الواقدي، ج٣، ص ٩٢٢ .

(٥) لمزيد من التفصيلات عن محاربة الطفيل للوثنيين في بلاد غامد وزهران وما جاورها من بلاد السراة، انظر: ابن سعد، ج٢، ص ١٥٧-١٥٨، ابن هشام، ج٢، ص ٢٥٠-٢٥١، ابن الجوزي، صفة، ج١، ص ٦٠٢، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (بيروت : دار العربية للطباعة والنشر، د.ت) مج ٣، ص ٥٥، ص ١٢٢، ابن جريس، دراسات، ج١، ص ٢٣، ٤٩ .

ب- صداء :

بطن من قبيلة مذحج نسبة إلى صداء بن يزيد بن حرب بن علة، وكانوا متحالفين مع بني الحارث بن كعب المذحجية، بل كانوا يسكنون في الناحية الشمالية من بلاد نجران، ويختلطون في مساكنهم مع بعض فروع خثعم، والأزد، وبجيلة^(١). وتذكر بعض المصادر أن رسول الله ﷺ عند عودته من الطائف في السنة الثامنة للهجرة جهز جيشا مكونا من أربعمائة من المسلمين وعليهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه) وأمره ان يتوجه إلى بلاد صداء المذحجية في بلاد السراة من ناحية نجران^(٢)، وفيما يبدو أن هذه السرية كان لها أهداف عديدة عند رسول الله ﷺ .، منها:

١. إشعار جميع القبائل التي مازالت على الوثنية في الحجاز وتهامة والسراة واليمن بأن قوة المسلمين أصبحت قادرة على مواجهة أي عدو يتصدى لنشر دعوة الإسلام وبالتالي فإرسال قوة عسكرية بهذا الحجم الصغير إلى أطراف بلاد اليمن الشمالية يعد انتصارا للإسلام والمسلمين .
٢. معظم الأقاليم في جنوب شبه الجزيرة العربية أصبحت في خوف شديد من ظهور الإسلام، ووصول جيوشه وسراياه إلى بلادهم، وأصبح كثير منهم تراودهم أنفسهم بالدخول في الإسلام، إما حبا فيه أو خوفا من قوة المسلمين، ويظهر الأمر واضحا في قول ربيعة بن رواء الغنسي الذي سئل عن سبب دخوله الإسلام فقال: (خُوفٌ فخضت وقيل لي آمن فأمنت)^(٣).

ومن الثابت أن هذا الجيش الذي أمر الرسول ﷺ بإرساله إلى بلاد صداء لم يخرج، ولكن إشاعة خبره في البلاد كان له تأثير ايجابي عند عموم المشركين، حتى إن أحد أعيان قبيلة صداء، ويدعى زياد بن الحارث الصدائي سمع بأمر الرسول ﷺ وإرسال هذا الجيش إلى بلاده، فجاء إليه، وقال يا رسول الله إنني ((جئتك وافدا على من ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي)) فردهم رسول الله ﷺ وكتب كتابا إلى صداء يدعوهم إلى الإسلام وبعثه مع زياد بن الحارث (رضي الله عنه)، وبعد مرور بضعة أسابيع عاد زياد إلى المدينة ومعه وفد من بلاد صداء عددهم خمسة عشر رجلا، فاستقبلهم الرسول ﷺ أحسن استقبال وفقهم في دينهم، ثم أمر عليهم أحدهم وأعادهم إلى بلادهم كي ينشروا الإسلام بين أقوامهم، فلم تأت حجة الوداع إلا ويقدم على الرسول ﷺ منهم مائة رجل معلنين إسلامهم^(٤).

(١) الهمداني، صفة، ٥٩، ١٤٧، ١٩٨، ١٩٩، ياقوت، ج٢، ص ٢٩٦، ٢٩٧، ابن حزم، جمهرة، ٤١٢، الأكوغ، الوثائق، ص ٨٩.

(٢) المصادر نفسها، انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٣، ص ٢٤٩، الشجاع، ص ١٩٢-١٩٣.

(٣) ابن سعد، ج١، ص ٣٤٢.

(٤) ابن سعد، ج١، ص ٣٢٦، ٣٢٧، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح المواهب اللدنية للسلاطاني (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م)، ج٣، ٤٢، ج٤، ٦١، ٦٠.

ج. خثعم :

إحدى قبائل السراة الكبرى التي تدين بالوثنية وتقوم على رعاية صنم ذي الخلصة في بلادها^(١)، وكان الرسول ﷺ يعرف مدى تأثيرهم وقوتهم في بلادهم وعلى من حولهم، فجهز سرية في شهر صفر من السنة التاسعة للهجرة، ووضع على رأسها الصحابي قطبة بن عامر الأنصاري^(٢) (رضي الله عنه)، وكان عددهم عشرين رجلاً فذهبوا إلى بلاد بيشة وتربة ورنية وأجزاء من بلاد السراة لمحاربة وتمزيق قبيلة خثعم. أمرهم الرسول ﷺ أن يشنوا الغارة عليهم فيفرضوهم ويمزقوهم في كل ناحية. فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها حتى وصلوا بلادهم ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد حتى كثر الجرحى بين الفريقين، وقتل من قتل وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة^(٣). ويظهر لنا من إرسال هذه السرية عدة أمور هي :

١. قلة عدد السرية المرسلة مع قطبة إلى بلاد السراة وبخاصة إلى قبيلة خثعم، ثم إحرازهم النصر عليهم، وهذا لا يمكن حصوله إلا بوجود دعم محلي من القبائل المسلمة المحيطة ببلاد خثعم، ولا يستبعد أن تكون قبائل دوس وصداء على رأس القوى المساندة لسرية قطبة خصوصاً أنهم قد أعلنوا إسلامهم في وقت سابق .
٢. أن هزيمة قبيلة خثعم لا يعني دخولهم الإسلام، وإنما بقوا على وثنتهم لفترة من الزمن، وبعد اشتباكات عسكرية وسرايا عديدة.
٣. أن الرسول ﷺ أدرك أن قبائل بلاد تهامة والسراة مستقلة بعضها عن بعض، لهذا كان يرسل قوى عسكرية محددة وإلى مواطن وقبائل معينة كي يخضعهم فيدينوا بالإسلام، وأحياناً قد يستعين ببعض القبائل أو العشائر المسلمة على قبائل وعشائر مجاورة لهم فيحاربونهم حتى يعلنوا إسلامهم، وهذا ما حدث في بلاد تهامة والسراة، بل في جميع نواحي الجزيرة العربية .

(١) لمزيد من الاطلاع على صنم ذي الخلصة وحماية خثعم له، انظر: ابن هشام، ج ١، ص ٨٨، ابن الجوزي، صفة، ج ١، ص ٧٤١، البخاري، الصحيح، مج ٢، ج ٥، ص ١١١، مج ٥، ج ٨، ص ١٠٠، محمد بن عبدالله الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج ١، ص ٣٧٤. ٢٨٩ (الhashية).

(٢) قطبة بن عامر الأنصاري صحابي بدري بل كان من أصحاب بيعة العقبة، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان معه راية بني سلمة يوم الفتح، توفي في خلافة عمر (رضي الله عنه)، أو في خلافة عثمان (رضي الله عنه)، ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن سعد، ج ٢، ص ١٦٢، ابن القيم، زاد المعاد، ج ٢، ص ٥١٤، للمزيد انظر: الزرقاني، شرح المواهب، ج ٢، ص ٤٨ .

د - قبائل بجيلة وبقية خثعم :

تذكر بعض المصادر أن جرير بن عبد الله البجلي^(١). (رضي الله عنه) قدم على الرسول ﷺ ببعض قومه بعد فتح مكة المكرمة، فأسلموا وحسن إسلامهم، ثم رأس الرسول ﷺ جريراً على صحبه وطلب منهم محاربة مشركي خثعم وهدم صنمهم ذو الخلصة، فلبى ما أمر به الرسول ﷺ^(٢). وفي رواية أخرى أنه وفد على الرسول ﷺ من بجيلة وفدان أحدهما بقيادة جرير بن عبد الله البجلي ومعه مائة وخمسون رجلاً من قومه، والآخر بزعامة قيس بن عذرة الأحمسي ومعه من أحمس^(٣). مئتان وخمسون رجلاً فدخلوا الإسلام جميعاً^(٤). ويشير ابن سعد في رواية أخرى عن جرير بن عبد الله بأنه قدم على الرسول ﷺ في السنة العاشرة ومعه بعض قومه من بجيلة فرحب به الرسول ﷺ ومن معه، ثم قال له بايعني : ((على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتصح المسلمين، وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً)) فقال جرير، نعم، فبايعه الرسول ﷺ، ثم سأله الرسول ﷺ عن أحوال ما وراءه في بلاد السراة، فقال : ((يا رسول الله قد أظهر الله الإسلام، وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد)) قال : ((فما فعل ذو الخلصة ؟)) قال هو على حاله، قد بقي والله مريح منه إن شاء الله))^(٥). ويتضح من لقاء جرير البجلي مع الرسول ﷺ بعض الأمور منها :

١. أن معظم أهل السراة وربما أهل تهامة أيضاً أصبحوا يدينون بالإسلام، وبخاصة في السنة التاسعة ومطلع السنة العاشرة للهجرة، وهذا الأمر يظهر واضحاً في قول جرير للرسول ﷺ : ((قد أظهر الله الإسلام، وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد)) .

٢. يبدو أن صنم ذو الخلصة وقبيلة خثعم السادنة له مازالت مصرة على الدفاع

(١) جرير البجلي، الصحابي الشهير، اختلفت المصادر في وقت إسلامه، إما قبل السنة العاشرة، أو في العاشرة، قال الرسول ﷺ (إنه خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك) اشترك مع الرسول ﷺ في حجة الوداع، وشارك في الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، ومات سنة (٥١هـ) وقيل سنة (٥٤هـ) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج١، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن هشام، ج١، ص ٨٨، البخاري، الصحيح، مج ٢، ج ٥، ص ١١٢-١١١، ابن الجوزي، صفة، ج ١، ص ٧٤١ .
(٣) أحمس، بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح الميم، بطن من الغوث بن أنمار، وهم بطن من بجيلة. انظر: ابن حزم، جمهرة، ص ٢٨٨، ٤٧٤ .

(٤) ابن سعد، ج١، ص ٢٤٧، ٢٤٨، ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦، ص ١٩٠، ١٩١ .

(٥) الأزرق، ج١، ص ٢٨٠، ابن سعد، ج١، ص ٢٤٧، ٢٤٨، البخاري، الصحيح، مج ٢، ج ٥، ص ١١٢-١١١ .

عن هذا الصنم، والتشبت بعقيدة الشرك، وهذا ما جعل الرسول ﷺ يحدد سؤاله لجريير عن وضع صنم ذي الخلصة، وهل مازال على وضعه ترتاده القبائل والعشائر، فكان جواب جريير البجلي بـ (نعم)، وهذا مما يوحي أن جميع العشائر والقبائل السروية لم تعتنق الإسلام، وإنما لزال منهم من يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام انتشار الدعوة الإسلامية في بلادهم.

ونجد الرسول ﷺ بعد حجة الوداع يقول لجريير بن عبد الله البجلي (رضي الله عنه) : ((إلا تريحني من ذي الخلصة))، وكذلك من القبائل المدافعة عنه كخثعم وغيرها، فاستجاب جريير لأمر الرسول ﷺ وعقد له لواءً ومعه مائتان من قومه، وأوصاه أن يسير إلى خثعم فيدعوهم ثلاثة أيام، فإن أجابوا إلى الإسلام قبل منهم، وهدم صنمهم (ذا الخلصة) وإلا وضع فيهم السيف^(١). وذهب جريير إلى بلاد خثعم فاشتبك مع الخثعميين ومن انضم معهم من القبائل والعشائر المجاورة المشتركة فهزمهم، وأخضعهم للإسلام، ثم هدم صنمهم (ذا الخلصة)، ورجع إلى الرسول ﷺ، فقال : (يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد هدمته، وأخذت ما عليه، وأحرقته بالنار، وتركته كما يسوء من يهوى هواه ...) (فسر الرسول ﷺ وبرك على جريير وقومه^(٢)). ويذكر أن الحارث بن عبد شمس الخثعمي خرج إلى المدينة بعد هدم جريير لصنم ذي الخلصة فأسلم وأخذ الأمان لأصحابه من الرسول ﷺ^(٣). وكتب رسول الله ﷺ كتاباً لخثعم، لسكان الحضر والبادية وضح لهم ترك دماء الجاهلية، وما يجب عليهم من الزكاة، وأشهد على هذا الكتاب، جريير بن عبد الله البجلي (رضي الله عنه)، ومما ذكر ﷺ في ذلك الكتاب، قوله : (هذا كتاب من محمد رسول الله لخثعم من حاضرة بيشة وباديته، أن كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو موضوع، ومن أسلم منكم طوعاً أو كرهاً في يده حرث من خيار أو عزاز تسقيه السماء ... فله نشره وأكله، وعليهم في كل سيح العشر، وكل غرب نصف العشر) (٤).

(١) اختلف في العدد الذي كان معه، ففي رواية البخاري (فتح البخاري ج ١٦، ص ١٩٠) مئة وخمسون رجلاً من أحمس، وفي رواية (فتح الباري ١٦/١٩١) عامة من كان معه وندب معه ثلاثمائة من الأنصار. وفي رواية ضعيفة عن الطبري : أنهم كانوا سبعمائة، وفي رواية أخرى : كانوا أكثر من ذلك : خمسمائة من أحمس ومائة وخمسين أتباع جريير وثلاثمائة من الأنصار، وهذا غير مستساغ، لأنه لم يلق حرباً ذات بال، وقد يكون الصحيح أنه لم يضم إليه من الأنصار أحداً لأن رسول الله ﷺ حينما بلغه خبر الإحراق دعا لجريير وقومه ولم يذكر الأنصار بشيء .

(٢) انظر: البخاري، الصحيح، مج ٢، ج ٥، ص ١١١-١١٢، ابن سعد ج ١، ص ٣٤٧-٣٤٨، الأزرقي، ج ١، ص ٣٨٠.

(٣) محمد حميد الله، الوثائق، ص ٢٩١ .

(٤) المرجع نفسه .

هـ - قبائل الأزدي في بلاد جرش (عسير حالياً) :

قدم على رسول الله ﷺ في السنة العاشرة للهجرة من بلاد جرش^(١)، صرد بن عبد الله الأزدي فأسلم وحسن إسلامه، وكان معه وفد من قومه، وقد مكثوا في المدينة عشرة أيام، وكانوا في ضيافة فروة بن عمرو البياضي، ويحضرهم مجلس الرسول ﷺ باستمرار، ثم أمر الرسول ﷺ صرد على قومه وأعادهم إلى بلادهم ينشرون الإسلام بين أهلهم في بلاد جرش (عسير حالياً)، ويجاهدون من لا زال منهم على الشرك^(٢).

وعند عودة صرد إلى أرض جرش اجتمع حوله بعض من دخل الإسلام سابقاً، وجاءوا إلى مدينة جرش فإذا بها مغلقة، وقد تحصنت بها بعض القبائل المشتركة من الأزدي وخنعم ومذحج فدعاهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لدعوته، وأعلنوا عنادهم وتصديهم له ولدعوته، فأحكم الحصار عليهم قرابة الشهر، إلا أنهم لم يستسلموا، فتراجع عنهم وفك الحصار، وأوهمهم أنه سوف يتركهم، فنزلوا من حصونهم وفتحوا أبواب المدينة فعاد إليهم وقتلهم قتالاً شديداً وهزمهم وغنم الشيء الكثير من أموالهم وخيولهم^(٣).

وقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بهذه الحادثة في وقت وقوعها، وكان في المدينة رجلان من أهل جرش، أرسلهما قومهما ليستطلعا الخبر ويتجسسا لهم، وقد سمعا ما قال الرسول ﷺ عن الواقعة التي حدثت بين أهل جرش وصرد بن عبد الله الأزدي^(٤)، وعند عودتهما إلى أرضهما أخبرا قومهما بما سمع في المدينة من رسول الله ﷺ، فاتضح أنه وقع لهم ما حدث مع صرد في نفس الزمان والمكان، وعندئذ علموا بصدق هذه الرسالة، وخرج وفد آخر حتى قدموا على الرسول ﷺ، فقال لهم الرسول ﷺ : ((مرحبا بكم أحسن الناس وجوهاً، وأصدقه لقاءً، وأطيبه كلاماً، وأعظمه أمانةً،

(١) جرش: بضم الجيم وفتح الراء، من مخاليف اليمن من جهة مكة، معناها مأخوذ من جرش الحبوب أي طحنها بدون تعميم، وقيل نسبة إلى جرش بن أسلم الذي يعود نسبه إلى حمير بن سبأ، والذي كان أول من سكنها فسميت باسمه، وغير ذلك من التعليقات والآراء. للمزيد: انظر: ياقوت، ج٢، ص١٢٦، البكري، معج ١، ج١، ص٢٧٦، ابن حزم، ص٤٣٦، ٤٧٨، غيثان بن علي بن جريس. تاريخ مخاليف جرش (عسير) خلال القرون الإسلامية الأولى (مجلة العصور، معج (٩) ج١، ١٩٩٤م) ص٧٨٦٣. للمؤلف نفسه، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج١، ص١٢٦.٩٣.

(٢) الطبري، ج٣، ص١٣٠، ابن جريس (تاريخ مخاليف جرش...)، ص٩٥ وما بعدها.

(٣) ابن هشام، ج٤، ص٢٢٣.٢٢٤، ابن سعد ج١، ص٣٢٧.٣٢٨، ابن القيم الجوزية، ج٢، ص٦٢٠.٦٢١، الطبري، ج٢، ص١٢٠.١٢١.

(٤) المصادر نفسها.

أنتم مني وأنا منكم)) (١). وجعل شعارهم مبروراً، وحمى لهم حمى حول مدينتهم كي ترعى فيه مواشيهم وأنعامهم، ولا يحق لغيرهم الرعي فيما حمى لهم)) (٢).

وفي اعتقادنا أن أهل جرش (عسير حالياً) لم يسلموا جميعهم بمقاتلة صرد بن عبد الله الأزدي لهم ، بل لم يتم إسلامهم إلا بعد عودة ذينك الرجلين اللذين سمعا ما قال الرسول ﷺ عن قومهما لأن بعض المصادر تذكر أن أهل تبالة (٣)، وجرش اسلموا من غير قتال، فتركهم الرسول ﷺ على ما أسلموا عليه، وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً واشترط عليهم ضيافة المسلمين (٤).

و- بنو الحارث بن كعب الوثنيون بنجران :

يعد بنو الحارث بن كعب معظم سكان بلاد نجران، وكانوا على دين الوثنية بخلاف نصارى نجران الذين سبق ذكرهم، والذين كانوا أقلية بالنسبة لعموم المنطقة النجرانية، وكان الرسول ﷺ يعلم ببقائهم على وثنتهم حتى السنة العاشرة للهجرة، ثم جهز لهم سرية قوامها أربعمائة رجل وأرسلها إليهم تحت قيادة خالد بن الوليد (رضي الله عنه)، وأوصاه أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام، فإن استجابوا له فليقم بينهم يعلمهم ويفقههم أساسيات ما جاء به الإسلام من تعاليم، كالتوحيد، والصلاة، والصيام وغير ذلك من أركان وقواعد الإسلام، وإن لم يستجيبوا فليحاربهم (٥).

وعندما وصلت سرية خالد إلى نجران، بعث الركبان يضربون في كل وجه، يدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون : (يا أيها الناس أسلموا تسلموا))، فأسلموا، لاسيما بعض بني الحارث بن كعب، ولحقت بهم القبائل والعشائر النجرانية الأخرى، ثم

(١) ابن سعد، ج١، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر نفسه، للمزيد انظر: محمد حميد الله، ص ٢٨٩. ٢٩٠، وعن الحمى وأهميته منذ بداية عصر الإسلام، انظر: صالح أحمد العلي (الحمى في القرن الأول الهجري) مجلة العرب (١٢٨٩هـ/١٩٦٩م)، ج٧، ص ٢ وما بعدها.

(٣) الطبري، ج٢، ص ١٣٠. ١٣١، ابن سعد، ج١، ص ٢٢٧. ٢٢٨، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢، ص ٢٠٤، ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ٢٢٢، تبالة: بفتح التاء والباء موضع ببلاد اليمن، وبين مكة وتبالة اثنتان وخمسون فرسخاً (حوالي ٢٠٠ كيلومتر)، وسميت بتبالة ابن جناب بن مكنف بن عمليق، وقيل غير ذلك، ياقوت، ج٢، ص ١٠٩، البلادي، ج١، ص ٣٠١ .

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٠. ٧١. وللمزيد انظر: ابن هشام، ج٤، ص ٢٢٢، ابن سعد، ج١، ص ٢٢٧، الطبري، ج٢، ص ١٢٠، ابن القيم الجوزية، ج٢، ص ٦٢٠.

(٥) الطبري، ج٢، ص ١٢٦ .

قام خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين بينهم يعلمونهم شرائع الإسلام، بل أخذوا الصدقات من أغنيائهم وردوها على فقرائهم^(١). وبنو الحارث بن كعب قد دخلوا في الإسلام، وكانوا قبل ذلك عازمين على القتال، وأعدوا لذلك العدة والعتاد، لكن ما لذي جعلهم يُغيرون موقفهم ويقبلون على اعتناق الإسلام في فترة وجيزة جداً، وبدون قتال، وربما يرجع ذلك لعدة أسباب منها :

١. عدم قدرتهم على مواجهة جيوش المسلمين التي استطاعت القضاء على قبيلة قريش، المرهوبة الجانب، ونجاحهم في مكة المكرمة التي كانت بمثابة المرحلة الأولى في رحلة الجيش الإسلامي المنجه إلى بلاد تهامة والسراة، وعموم أرض اليمن، لنشر العقيدة الإسلامية. وبالتالي نظروا للأمور بنظرة حكمة وتعقل فدخلوا الإسلام بدون حرب إدراكاً منهم أنه الدين الذي ستؤول له السيادة على جزيرة العرب .

٢. أن الصراعات والحروب القبلية ربما تكون قد أنهكت قبيلة مذحج، التي ينتسب إليها بنو الحارث بن كعب، ومعظم سكان نجران، وبالتالي رأوا أن دخولهم في الإسلام قد ينقذهم من عناء الحروب وشظف العيش، وبخاصة أن خالد بن الوليد عندما جاء إليهم وضع ما يجب لهم وما عليهم فوجدوا في الإسلام ضالتهم المنشودة .

٣. أن غالبية الذين استجابوا لخالد بن الوليد واعتنقوا الإسلام كانوا من الوثنيين، وبالتالي فالعامل الديني لعب دوره في سرعة دخولهم للديانة السماوية الجديدة، بخاصة وأن الديانتين اليهودية والنصرانية، كان لا يزال هناك من يدين بهما في نجران. أما الوثنيون فربما لاحظوا مدى تخلفهم العقدي مقارنة بأصحاب الديانات السماوية السابقة، وبالتالي رأوا في الإسلام فرصة ثمينة عند ما جاءتهم الدعوة الإسلامية الداعية إلى وحدانية الله، فاستجابوا لها ودخلوا الإسلام في أيام معدودة ليكونوا بدورهم أصحاب رسالة سماوية فيتماثلون هم ويهود ومسيحو نجران .

وبعد نجاح خالد بن الوليد في مهمته سلماً وإقناعاً لأهل نجران بالدخول في الإسلام بعث بكتاب إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك، وأنه مقيم بينهم تلبية لأوامره يعلمهم شرائع الإسلام، وهو في انتظار الجديد من تعليماته ﷺ^(٢)، فأجابه الرسول ﷺ برسالة يعلمه من خلالها بوصول كتابه الحاوي لنبا إسلام أهل نجران ويأمره

(١) المصدر نفسه، للمزيد انظر: أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري. أنساب الأشراف. تحقيق محمد حميد الله (القاهرة) : معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف، د، ت (ج ١، ص ٢٨٤ .

(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٢٧، ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ٢٢٩ .

بالعودة إلى المدينة، وبصحبته وفد من مسلمي نجران^(١). فلما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد، أخبر بني الحارث بن كعب برغبة رسول الله ﷺ بمقابلة وفدهم فشكّلوا الوفد من أشرفهم، ثم جاء خالد إلى المدينة وبرفقته وفد نجران^(٢)، ويمدنا الطبري بأسماء أعضاء الوفد النجراني وكان عددهم ستة أشخاص هم: قيس بن الحصين بن يزيد بن قتان ذي الغصة^(٣)، ويزيد بن عبد المدان الحارثي، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قريظ الزيادي، وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الضبابي^(٤)، فلما رآهم الرسول ﷺ قال: ((من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند، قيل يا رسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب))^(٥)، وربما شبههم الرسول ﷺ برجال الهند بسبب سمرة بشرتهم أو بسبب ملابسهم وأزيائهم التي يرتدونها، أو بهما معا. وعندما وقفوا أمام الرسول ﷺ سلموا عليه، ثم قالوا: ((نشهد أنك رسول الله وأن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ أتتم الذين إذا زجروا استقدموا! فسكتوا، فلم يراجعهم أحد))^(٦). ثم أعاد الرسول ﷺ عليهم هذه العبارة أربع مرات، وهم لا يردون عليه، وفي الرابعة قال يزيد بن عبد المدان: ((نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا))^(٧). قالها أربع مرات فقال رسول الله ﷺ: ((لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسلمتم، ولم تقاثلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم))^(٨).

ويتضح من هذا اللقاء الذي حدث بين الرسول ﷺ ووفد نجران، ومن العبارات التي دارت بينهما بأن الرسول ﷺ كان غاضبا عليهم وبخاصة ما ورد في العبارة الأخيرة. ولا ندري ما هو السبب، فان كان غضب الرسول ﷺ بأنهم كانوا يعملون

(١) ابن سعد، ج١، ص ٢٣٩، الطبري، ج٢، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) الطبري، ج٢، ص ١٢٧.

(٣) سمي بذي الغصة، لغصة كانت تعتره في حلقه حين يتكلم، وكان فارساً من ذوي المربع، أي الذين كانوا يأخذون ربع الغنيمة التي يغمها قومه في حروبهم مع غيرهم حضرها أم لم يحضرها. انظر: ابن هشام، ج٤، ص ٢٤١، عبد الواحد محمد راغب دلال. البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران (القاهرة: مطابع دار التعاون للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ص ١٢٥، حاشية (٢).

(٤) الطبري، ج٢، ص ١٢٧، للمزيد انظر: ابن سعد، ج١، ص ٢٣٩، ابن جريس، نجران، ج١، ص ٦٤-٦٥، جواد علي، ج٤، ص ٨٨ وما بعدها.

(٥) ابن هشام، ج٤، ص ٢٤٠، الطبري، ج٢، ص ١٢٧.

(٦) الطبري، ج٢، ص ١٢٧-١٢٨، ابن هشام، ج٤، ص ٢٤٠، ابن سعد، ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٧) ابن هشام، ج٤، ص ٢٤٠-٢٤١، الطبري، ج٢، ص ١٢٧-١٢٨، ويقصد بالزجر، نوع من الكهانة والعيافة، والزجر للطيور هو التيمن والتطير بهما، انظر: ابن منظور، ج٦، ص ١٢، فعل (زجر). وعادة الكهانة كانت من العادات السائدة عند العرب قبل الإسلام، ويتضح من سياق الحديث أنها كانت موجودة عند أهل نجران.

(٨) الطبري، ج٢، ص ١٢٧-١٢٨، ابن هشام، ج٤، ص ٢٤٠-٢٤١.

بالزجر والكهانة، فهذا لم يكن غريباً على الرسول ﷺ وإنما كان يعرف أن هذه العادات كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام، وإن كان غضبه بأن الوفد لم يتجاوب معه عندما سألهم لأول مرة، ولم يردوا عليه إلا بعد أن سألهم أربع مرات، ثم ردوا عليه إجابتهم أربع مرات أيضاً، فهذا الأمر حدث مرات عديدة مع الرسول ﷺ، بل كان هناك من عرب الجزيرة من يأتي إلى النبي الكريم ويهاجمه بالكلام ويشدد عليه في القول، والرسول ﷺ كان لينا رقيقا في معاملته وتجاوبه مع مثل أولئك^(١). ونجد ابن هشام، والطبري، وابن كثير يوردون هذا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين وفد نجران، دون أن يذكروا سبب غضب النبي ﷺ^(٢)، في حين أن بعض المصادر التاريخية الأخرى قد أشارت إلى سرية خالد بن الوليد إلى اليمن، وإلى هذه المقابلة مع الرسول ﷺ مع تجنب ذكر هذا الحوار الذي يتصف بشدة اللهجة في كلام الرسول ﷺ، وربما أن هذه المصادر شكت في صحة إسناد هذا الحوار إلى رسول الله ﷺ أو أنها تحاشت ذكره، فاليعقوبي وابن خلدون ذكرا بعض تفاصيل تلك السرية، وذلك اللقاء، لكنهما لم يوردا الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ ووفد نجران^(٣). كذلك ابن سعد في الطبقات لم يشر إلى هذا الحوار، مع أنه ذكر أن رسول الله ﷺ أكرم وفد نجران ووزع عليهم الجوائز، فأعطى كل واحد منهم عشر أواق، ما عدا قيس بن الحصين فأعطاه اثنتي عشرة أوقية وجعله أميراً عليهم. وابن الأثير، الذي يعتمد في نقله على الطبري، تجنب أيضاً ذكر هذا الحوار مع أنه أشار إلى حديث الرسول ﷺ مع هذا الوفد^(٤).

وإذا كان الطبري، وابن هشام، وابن كثير هم الذين تحدثوا عن هذا اللقاء والحوار بين الرسول ﷺ ووفد نجران^(٥)، فنجد أنهم يواصلون بقية الحوار، بعد أن رد عليهم الرسول ﷺ رداً فيه عنف وحدة، فقال يزيد بن عبد المدان: ((أما والله يا رسول الله، ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا، فقال رسول الله ﷺ فمن حمدتم؟ فقالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله، قال: صدقتم))^(٦). وقد عرف بنو الحارث في الجاهلية بالشجاعة والإقدام، وشدة البأس، والصبر في الحروب، فما حاربهم أحد إلا انتصروا

- (١) ونجد القرآن الكريم يذكر آيات كثيرة يوضح فيها لين الرسول ﷺ مع المسلمين، أثناء قيامه بالدعوة، قال تعالى (فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لَنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ). [سورة آل عمران .
- (٢) ابن هشام، ج٤، ص٢٤٠-٢٤١، الطبري، ج٢، ص١٢٧-١٢٨، أبو الفداء إسماعيل بن كثير. البداية والنهاية. تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين (بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) مج٢، ص٥، ص٨٨-٨٩.
- (٣) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٧٩، ابن خلدون، تاريخ، ج٢، ص٤٧٣.
- (٤) ابن سعد، ج١، ص٢٣٩-٢٤٠، ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص١٩٩-٢٠٠.
- (٥) الطبري، ج٢، ص١٢٨، ابن هشام، ج٤، ص٢٤٠، ابن كثير، البداية، مج٢، ص٥، ص٨٩.
- (٦) المصادر نفسها .

عليه، كذلك اشتهروا بالكرم، والعدالة، وطيب الأخلاق والتعاون فيما بينهم، والرسول ﷺ يعرف ما تواتر عنهم من تلك الصفات فأراد أن يقف على ذلك بنفسه ويعرف سر انتصاراتهم في الحروب، فواصل الحديث معهم بقوله "بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحداً فقال رسول الله ﷺ بل قد كنتم تغلبون من قاتلكم، قالوا: يا رسول الله، كنا نغلب من قاتلنا، أنا كنا بني عبيد، وكنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحد بظلم، قال: صدقتم" (١).

ومن هذه العبارات التي قالها وفد نجران للرسول ﷺ تتضح لنا عدة دروس منها:

١. علم الرسول ﷺ بما كان يتصف به أهل نجران من صفات حميدة حث عليها الإسلام، لهذا أصر على سؤاَلهم واشتد معهم في القول حتى يتأكد من تواتر هذه الصفات فيهم، وبخاصة في انتصاراتهم ضد أعدائهم.

٢. أراد الرسول ﷺ أن يسمع المسلمون إجابة هؤلاء القوم، الذين كانوا عصابة واحدة فلا يتفرقون، بل يتغلبون على مشاكلهم الداخلية من أجل الوحدة والتكاتف فيما بينهم حتى يتصدوا لأعدائهم، ومن يترىص بهم الدوائر، ثم إنهم كانوا أصحاب عدل واستقامة، فلا يسعون إلى ظلم أحد، وهذه قيم رفيعة اتصفوا بها في الجاهلية فسادوا، وعندما جاء الإسلام نادى بها وحث جميع المسلمين على الاتحاد والتكاتف فيما بينهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما حذر الإسلام من الظلم، وأخذ حقوق الناس بالباطل وحث المسلم على العدل والاستقامة في أموره كلها.

٣. دخول وفود أهل تهامة والسراة في الإسلام:

منذ فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وعموم قبائل الجزيرة العربية أصبحت ترى أنه لا محيص من دخول الإسلام، وبخاصة بعد سقوط قريش التي كانت تمثل رأس حربته الشرك للإسلام والمسلمين، وكي نطلع القارئ الكريم على وضع سكان تهامة والسراة، فإننا سوف نذكر في الصفحات التالية الوفود التي قدمت من هذه البلاد على الرسول ﷺ معلنة إسلامها بين يديه طواعية، وتأخذ الأمان من رسول الله ﷺ لأقوامها من بعدها، وهم على النحو التالي:

أ. وفود بيشة:

قدم من بلاد بيشة إلى رسول الله ﷺ، بعد فتح مكة المكرمة، مطرف بن الكاهن الباهلي، فأعلن إسلامه وطلب الأمان لقومه، فأمنه الرسول ﷺ وأعطاه كتاباً له ولن

(١) المصادر نفسها.

بعده فيه فرائض الصدقات قال فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن، ولمن سكن بيشة من باهلة، أن من أحيا أرضاً مواتاً بيبضاء فيها منافع الأنعام ومراح فهي له وعليهم في كل ثلاثين من البقر فارض، وفي كل أربعين من الغنم شاة، وفي كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة، وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها، وهم آمنون بأمان الله) (١). وقدم علي الرسول ﷺ نهشل بن مالك الوائلي من باهلة في بيشة، فكتب له الرسول ﷺ كتاباً له ولقومه من بعده قال فيه: (باسمك اللهم، هذا كتاب من محمد رسول الله، لنهشل بن مالك ومن معه من بني وائل، لمن أسلم وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع الله ورسوله، وأعطى من المغنم خمس الله وسهم النبي، وأشهد على إسلامه وفارق المشركين، فإنه آمن بأمان الله، وبرئ إليه محمد من الظلم كله، وأن لهم لا يحشروا ولا يعشروا، وعاملهم من أنفسهم) (٢).

ب- وفود غامد ودوس :

يذكر ابن سعد أنه قدم وفد غامد على رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة العاشرة، وهم عشرة، فنزلوا ببيقع الغرقد، ثم لبسوا من صالح ثيابهم، وانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقروا بالإسلام، وكتب لهم الرسول ﷺ كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأتوا أبي بن كعب فعلمهم قرآناً، وأجازهم رسول الله ﷺ كما يجيز الوفد وانصرفوا (٣).

وتشير بعض المصادر إلى أن الرسول ﷺ كان قد كتب إلى أبي ظبيان الأزدي الغامدي يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام، لكننا لم نعثر على نص هذا المكتوب (٤). وفي كتاب آخر أرسله الرسول ﷺ أيضاً إلى أبي ظبيان عمير بن الحارث الأزدي الغامدي (٥). قال فيه : (أما بعد : فمن أسلم من غامد فله ما للمسلم، حرم ماله ودمه، ولا يعشروا ولا يحشروا، وله ما أسلم عليه من أرضه ...) (٦).

وكما أشرنا سابقاً أن بعض الدوسيين المجاورين للغامديين في مواطنهم ببلاد

(١) ابن سعد، ج ١، ص ٣٠٧، محمد حميد الله، ص ٢٩٢.

(٢) حميد الله، ص ٢٩٢، ٢٩٣، ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسرّة، ج ١، ص ٣٥.

(٣) ابن سعد، ج ١، ص ٢٤٥، ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ٢٨٨، الزرقاني، ج ٤، ص ٦٣.

(٤) الأكوغ، الوثائق، ص ٨٧، ويذكر (أنه كتب الرسول ﷺ إلى أبي ظبيان الأزدي الغامدي يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام فأجابته في نذر من قومه بمكة مخنف وعبد الله وزهير بنو سليم، وعبد الله بن عفيف، وجندب بن كعب، وهؤلاء بمكة، وقدم عليه بالمدينة الحجن بن المرقع، وجندب بن زهير، وجندب بن كعب، ثم قدم بعد مع الأربعين الحكم بن مغفل، فأتاه بمكة أربعون رجلاً) المرجع نفسه، ص ٨٧.

(٥) المرجع نفسه. ويدعى هذا الصحابي أبو ظبيان الأزدي الغامدي، وكذلك أبو ظبيان عمير بن الحارث الأزدي

الغامدي، انظر: المرجع نفسه

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٧.

السراة قد أسلموا مع زعيمهم الطفيل بن عمرو الدوسي منذ السنة السابعة للهجرة، وكان أبو هريرة وعبد الله بن أزهر الدوسي من ضمن الذين وفدوا على الرسول ﷺ في المدينة، لكنهم وجدوه خرج إلى بلاد خيبر لمحاربة اليهود هناك فلحقوا به، وأعلنوا إسلامهم بين يديه فقسم لهم الرسول ﷺ من غنيمة خيبر، ثم عادوا معه المدينة فقال الطفيل: يا رسول الله لا تفرق بيني وبين قومي فأنزلهم حرة الدجاج^(١). وقال أبو هريرة في هجرته حين خرج من دار قومه في بلاد دوس بالسراة:

يا طولها من ليلة وعناءها على أنها من بلدة الكفر نجت^(٢).

وقال عبد الله بن أزهر: ((يارسول الله إن لي في قومي سطة ومكاناً فأجعلني عليهم، فقال رسول الله ﷺ يا أبا دوس إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فمن صدق الله نجا ومن آل إلى غير ذلك هلك، إن أعظم قومك ثواباً أعظمهم صدقاً، ويوشك الحق أن يغلب الباطل))^(٣).

ج- وفود بعض العشائر المذحجية والأزدية من الأجزاء التهامية والسروية:

هناك بعض الوفود المذحجية والأزدية القاطنة بين نجران والطائف وزبيد ومكة، كانت قد جاءت لإعلان إسلامها أمام رسول الله ﷺ في العامين التاسع والعاشر الهجريين، ثم عادت إلى أقوامها كي تشر الإسلام بينهم، ومن أشهرهم، كما ذكرنا سابقاً، بنو الحارث بن كعب في نجران، والأزديون الجرشيون في بلاد عسير^(٤)، إلا أن هناك وفوداً وكتباً أخرى بين رسول الله ﷺ وبين فروع مذحجية وأزدية خلاف أهل نجران وجرش نذكرهم على النحو التالي:

(١) ابن سعد، ج ١، ص ٣٥٢، حرة الدجاج، إحدى نواحي المدينة في عهد الرسول ﷺ.

(٢) ابن سعد، ج ١، ص ٣٥٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن وفود جرش ونجران، انظر: البيهقي، ج ٢، ص ٧٩، ابن سعد، ج ١، ص ٣٢٨ - ٣٢٩، الطبري، ج ٣، ص ١٢٧، ١٣٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٠، ابن خلدون، ج ٢، ص ٤٧٢، ابن القيم الجوزية، ج ٣، ص ٦٢٠ - ٦٢١.

١- من وفود بعض البطون المذحجية التهامية والسرورية :

أ- وفد زبيد :

قدم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، من نواحي تثليث، ومعه عشرة نفر من عشيرته زبيد المذحجية إلى المدينة، فنزلوا على سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه) فاستقبلهم وأحسن استقبالهم، ثم ذهب به مع قومه إلى الرسول ﷺ، فأسلم هو ومن معه وأقام أياماً في المدينة، ثم أجازه الرسول ﷺ بجائزة وانصرف إلى بلاده وأقام مع قومه على الإسلام، حتى توفى رسول الله ﷺ (١).

ب- وفد مراد :

مراد أحد بطون مذحج، وكانت تجاور قبيلة همدان وبينهم حروب وثورات من أيام الجاهلية (٢)، وكان زعيم مراد فروة بن مسيك المرادي وعندما ظهر الإسلام، وأصبح فروة لا يجد من يناصره على قبيلة همدان ترك الشرك وأهله، وذهب إلى المدينة لإعلان إسلامه أمام رسول الله ﷺ وذكر ذلك شعراً فقال :

يممت راحلتي أؤم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها (٣).

وقد خرج معه في هجرته إلى المدينة بعض قومه، فوصلها في السنة التاسعة، فاستقبله سعد بن عبادة (رضي الله عنه) حيث أنزله عنده، وبقي يتردد على مجلس الرسول ﷺ يتعلم فرائض الإسلام، ثم أجازه الرسول ﷺ بأثنتي عشر أوقية، واستعمله على مراد وعنس وزبيد (٤)، وفي رواية تشير إلى أن ولايته كانت على عموم بلاد

(١) ابن سعد، ج ١، ص ٢٢٨. عمرو بن معد كرب الزبيدي دخل الإسلام في عهد الرسول ﷺ، ثم ارتد في عهد أبي بكر الصديق، وانضم إلى الأسود العنسي، وبعد مقتل العنسي عاد إلى الإسلام مرة أخرى، ثم شارك في الفتوحات الإسلامية في جبهتي الجهاد ضد الروم والفرس. للمزيد انظر: أبو عبد الله عمر الواقدي. فتوح الشام (بيروت: دار الجيل، د. ت) ج ١، ص ٢٧، ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ٢٣٠ - ٢٢٢، البلاذري، فتوح، ص ١٢٦ - ١٢٧، ١٢٨. ابن جريس. دراسات في تاريخ تهامة والسرّة، ج ١، ص ٥٥ وما بعدها.

(٢) وقعت بين همدان ومراد حرب طاحنة في مكان يسمى الردم، ونسبت المعركة إلى هذا المكان، فسميت بـ (يوم الردم)، أو (يوم الرزم)، وقد توافق حدوثها مع غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وأسفرت هذه المعركة عن هزيمة مراد. للمزيد انظر: ابن هشام، ج ٤، ص ٢٢٨، ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٤٢، الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ٢١٧.

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٢، ص ٢٠٠ (بهامش الإصابة) الطبري، ج ٢، ص ١٢٥. فروة بن مسيك المرادي: من (غطيف) قال البخاري له صحبة، وقد وفد على رسول الله ﷺ، واستعمله على مراد ومذحج كلها. وبعت معه خالد بن سعيد بن العاص، وبقي حتى توفى رسول الله ﷺ، وكان له دور في مقاومة المرتدين، ثم استعمله عمر بن الخطاب على صدقات مذحج، سكن الكوفة، وهو من وجوه قومه، ولا نعرف تاريخ وفاته. ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٤) ابن سعد، ج ٥، ص ٥٢٤، الطبري، ج ٢، ص ٣٠٥.

مذحج^(١)، وأرسل معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقات، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة، ولم يزل بتلك البلاد حتى وفاة الرسول ﷺ^(٢).

ج- وفد الرهاويين :

قدم على رسول الله ﷺ، في السنة العاشرة، خمسة عشر رجلاً من الرهاويين، وهم من مذحج، فنزلوا دارملة بنت الحارث، فأتاهم رسول الله ﷺ فتحدث معهم طويلاً، وأهدوا الرسول ﷺ هدايا، منها فرس يقال له المرواح، ثم أسلموا وتعلموا القرآن والفرائض، وأجازهم كما يجيز الوفد، أكثرهم اثنتي عشرة أوقية، وأقلهم خمس أواق، ثم عادوا إلى بلادهم. وفي حجة الوداع قدمت منهم طائفة اشتركوا مع الرسول ﷺ في الحج، ثم ذهبوا معه إلى المدينة للإقامة معه، وقد أوصى لهم الرسول ﷺ بحمل بعير من مزروعات خيبر، وكتب لهم كتاباً بذلك^(٣).

د- وفد سعد العشيرة :

سعد العشيرة أحد بطون مذحج التي نزحت من السراة إلى تهامة وجاورت الأشعريين والعكيين في بلاد جازان وزبيد وما حولها، وعند ظهور الإسلام كانوا على دين الوثنية، وكان لهم صنمٌ يسمى (فَرَّاض)، فوثب رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة^(٤)، ويدعى عبد الله بن ذياب الأنسي، على ذلك الصنم وحطمه، ثم يمم تجاه المدينة للدخول في الإسلام، وقال :

وَخَلَفْتُ فَرَّاضاً بَدَارَ هَوَانٍ
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَالِدَهُرُ ذُو حَدَثَانٍ
أَجِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ دَعَانِي
وَأَلْقَيْتُ فِيهَا كَلْكَلِي وَجَرَانِي
شَرِيتُ الَّذِي بَيَقَى بِأَخْرَ فَانِي؟^(٥)

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى
شَدَدْتُ عَلَيْهِ شِدَّةَ فَرَّكْتَهُ
فَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ
فَأَصْبَحْتُ لِلْإِسْلَامِ مَا عَشْتُ نَاصِراً
فَمَنْ مَبْلَغُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَنْنِي

(١) ابن سعد، ج ١، ص ٢٢٧، ج ٥، ٥٢٤، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ١، ص ٤٠٠، (هامش الإصابة)، الطبري، ج ٢، ص ١٣٦.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) ابن سعد، ج ١، ص ٣٤٤، ٣٤٥، ابن حجر، الإصابة، ج ٢، ص ٥٢٧، ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ٢٢٧. للمزيد عن بلاد الرهاويين الذين تتداخل بلادهم مع بلاد حمير، انظر: ابن حزم، الجمهرة، ص ٤١٢، الهمداني، صفة، ص ١٨١، ١٨٢ (الحاشية).

(٤) ابن سعد، ج ١، ص ٣٤٢.

(٥) المصدر نفسه.

هـ- وفد جهيش بن أنيس المذحجي

وفد على رسول الله ﷺ من أهل مذحج جهيش بن أنيس النخعي المذحجي في نضر من أهل مذحج فقالوا: ((إسلامنا على أن لنا من أرضنا ماؤها ومرعاها وهدلها)) فقال رسول الله ﷺ ((اللهم بارك على مذحج وعلى أرض مذحج من حشد ورفد زهر...)) ثم كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أورد فيه شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها، وصوم شهر رمضان ثم قال: ((فمن أدركه الإسلام وفي يده أرض بيضاء سقية الأنواء فالعشر، وما كان من أرض تسقى بالدلاية فنصف العشر...))^(١)، ويذكر أن جهيشاً أنشد شعراً، فقال:

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ صَادِقٌ	فَبُورِكَتْ مَهْدِيًّا وَبُورِكَتْ هَادِيًّا
شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْحَنِيفَةَ بَعْدَمَا	عَبَدْنَا كَأَمْثَالِ الْحَمِيرِ الطَّوَاغِيَا
فِيَا خَيْرٍ مَدْعَى وَيَا خَيْرٍ مُرْسَلٍ	مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّانِ لَبِيكَ دَاعِيَا
أَتَيْتَ بَبْرَهَانَ مِنَ اللَّهِ وَاضِحٌ	فَأَصْبَحْتَ فِينَا صَادِقَ الْقَوْلِ زَاكِيَا
وَنَحْنُ قَبِيلٌ مِنْ ذُؤَابَةِ مَذْحَجٍ	أَتَيْنَاكَ نَرْجُو أَنْ نُصِيبَ الْمَعَالِيَا
نَجُودُ بِنَفْسٍ لَا يُجَادُ بِمِثْلِهَا	إِذَا لَفَحَتْ حَرْبٌ تُشِيبُ النَّوَاصِيَا
فَبُورِكَتْ فِي الْأَقْوَامِ حَيًّا وَمَيِّتًا	وَبُورِكَتْ مَهْدِيًّا وَبُورِكَتْ هَادِيًّا ^(٢)

٢- ومن وفود بعض البطون الأزديّة في تهامة والسراة :

أ- وفد بارق :

قدم من الأزديين على رسول الله ﷺ وفد بارق^(٣)، فدعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، فأسلموا وبايعوا، وكتب لهم رسول الله ﷺ: ((هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق، لا تجز ثمارهم، ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسالة من بارق، ومن مر بهم من المسلمين في عرك أو جذب فله ضيافة ثلاثة أيام، وإذا أينعت ثمارهم فلا بن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير يقتسم ...))^(٤).

ب- وفد غافق :

قدم جليحة بن شجار بن صحار الغافقي الأزدي على رسول الله ﷺ في رجال من

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأكوغ، الوثائق، ص ٩٣١.

(٣) بارق: بطن من الأزدي، واسم بارق سعد بن عدي منازلهم في جبال السراة، ونزلوا، الكوفة بعد ذلك. ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧٣، كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٥٧.

(٤) ابن سعد، ج ١، ص ٣٥٢.

قومه، فقالوا: يا رسول الله نحن الكواهل من قومنا، وقد أسلمنا، وصدقاتنا محبوسة بأفئيتنا، فقال: لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فقال عوز بن سرير الغافقي، أمنا بالله واتبعنا الرسول^(١).

ج- وفد سلامان :

ويذكر أن وفد سلامان الأزدي قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة في شهر شوال من السنة العاشرة وكانوا سبعة نفر، وعند مقابلته ﷺ كان خارجا من المسجد إلى جنازة دعي إليها، فقالوا السلام عليك يا رسول الله! فقال وعليكم، من أنتم، فقالوا: نحن من سلامان قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من ورائنا من قومنا، فقال: الرسول ﷺ لغلامه ثوبان أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفود فلما صلى الظهر اجتمع بهم فعلمهم شرائع الإسلام، وأعطى كل واحد منهم خمس أواق، وعادوا إلى بلادهم^(٢).

د- وفود أزدية أخرى :

تشير بعض المصادر إلى أسماء بعض رجالات الأزد في بلاد تهامة والسراة الذين تلقوا رسائل من رسول الله ﷺ يقرهم على بلادهم بعد إسلامهم، ويشرح لهم بعض شرائع الإسلام، ولم تذكر هذه المصادر قصة وفودهم على رسول الله ﷺ في المدينة، لكنها تشير إلى بعض نصوص خطابات الرسول ﷺ إليهم، ولا نستبعد أنهم أرسلوا منهم رسلا إلى رسول الله ﷺ يعلنون له إسلامهم، ويرغبون الاستزادة من علوم الشرع التي تعينهم على فهم دينهم، ومن أولئك الأزديةين :

١. خالد بن ضماد الأزدي، وهو ابن ضماد الأزدي الذي أعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ في فترة المرحلة المكية، وتشير بعض الروايات إلى أن رسول الله ﷺ كتب لخالد بن ضماد: ((إن له ما أسلم عليه من أرضه، على أن يؤمن بالله لا شريك له، ويشهد أن محمد عبده ورسوله، وعلى أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويصوم شهر رمضان، ويحج البيت، وألا يؤوي محدثا، ولا يرتاب، وعلى أن ينصح لله ولرسوله، وعلى أن يحب أحباب الله ويبغض أعداء الله)) والتزم له الرسول ﷺ بقوله: ((وعلى محمد النبي أن يمنع منه نفسه وماله وأهله، وأن لخالد الأزدي ذمة الله وذمة محمد النبي إن وفى بهذا))^(٣).

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٢-٣٣٣، انظر غيثان بن جريس. بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ/٢٠١٩م). الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م، (الطبعة الثالثة)، ص ٧٨.

(٣) الأكوغ، الوثائق، ص ٨٦. محمد حميد الله، ص ٢٣٨.

٢. أبوراشد عبد الرحمن الأزدي، الذي يقول : ((قدمت أنا وأخي، من سروات الأزد، فأسلمنا جميعاً، وكتب لي رسول الله ﷺ كتاباً إلى جهة الأزد))، ولم يذكر نص ذلك الكتاب^(١) .
٣. جنادة الأزدي من أهل السراة، الذي كتب له الرسول ﷺ كتاباً قال فيه ((بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لجنادة الأزدي وقومه ومن تبعه: ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا من المغانم خمس الله، وسهم النبي ﷺ، وفارقوا المشركين، فإن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله))^(٢) .

د- وفد الأشعريين :

قدم الأشعريون من تهامة على رسول الله ﷺ وهم خمسون رجلاً، وفيهم أبو موسى الأشعري، وبعض إخوانه، ومعهم رجلان من عك، ويذكر أنهم ركبوا البحر من بلاد الأشعريين حتى نزلوا بجدة، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون: " غدا نلقى الأحبه، محمداً وحزبه " ثم قدموا فوجدوا رسول الله ﷺ في خيبر، فذهبوا لمقابلته ومبايعته على الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : " الأشعرون في الناس كصرة فيها مسك "^(٣) .

خامساً : الخاتمة :

وخلاصة القول أن أهل تهامة والسراة كانوا من أوائل مجتمعات الجزيرة التي علمت وراقبت الأحداث في الحجاز أثناء مرحلتي الدعوة المكية والمدنية، ثم تدرجوا في الدخول في الإسلام منذ ظهوره في مكة المكرمة حتى وفاة الرسول ﷺ، ويمكننا الخروج بكثير من النتائج والتوصيات فنذكرها على النحو الآتي:

١. أن اتصال بلاد تهامة والسراة جغرافياً بأرض الحجاز كانت من الأسباب التي جعلت سكان هذه البلاد يطلعون على أحداث ظهور الدعوة الإسلامية في مكة ثم المدينة، بل كان البعض منهم يذهب إلى مكة ويشاهد الغضب والصراع الذي استحدثته قريش للرسول ﷺ ودعوته، وبالتالي تأثر بعض السريين بهذا الدين الجديد فدخلوا فيه قبل أن تقوم عاصمة الدولة الإسلامية في المدينة .
٢. الصبغة القبلية كانت المتحكمة في حياة عموم سكان الجزيرة العربية، فهذه قريش في مكة، وتلك قبائل الأزد، ومدحج، وخثعم، وبجيلية، وهمدان، وخولان،

(١) حميد الله، ص ٢٣٨ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٨-٢٣٩، الأكوغ، الوثائق، ص ٨٦ .

(٣) ابن سعد، ج ١، ص ٣٤٨-٣٤٩ .

وحمير، وغيرها في بلاد تهامة والسراة وأجزاء عديدة من أرض اليمن، وقد أدرك الرسول ﷺ مكانة القبائل وأهمية شيوخها وأعيانها فكان يرسل رسله وخطاباته إليهم فيشرح لهم أهداف الدين الإسلامي، وما يسعى إليه لإخراج الناس من الظلام إلى النور، ومن الباطل إلى الحق. وكانت نتائج الدعوة السلمية للرسول ﷺ قد أثمرت، فدخلت بعض العشائر أو بعض أفرادها في الإسلام، ثم صاروا فيما بعد رسلاً لرسول الله ﷺ إلى أقوامهم يدعونهم إلى الإسلام، ويستخدمون القوة أحياناً إذا عجزوا عن تحقيق ما يسعون إليه عن طريق السلم واللين. بل كان الرسول ﷺ يرسل من قبله سرايا التي تذهب إلى قبيلة محددة أو مكان معين فتجاهد وتؤدب الكفار الذين أصروا على عنادهم في محاربة الإسلام ومن ينتمي إليه.

٢. نجاح الرسول ﷺ وصحابته، وكثير من مسلمي تهامة والسراة في ترسيخ عقيدة الإسلام في هذه البلاد، وبالتالي فلم تأت السنان التاسعة والعاشر من الهجرة إلا وجميع سكان تهامة والسراة يعلنون إسلامهم أمام رسول الله ﷺ، أو أمام رسله وصحابته الذين كان يرسلهم إليهم لتبليغهم وتعليمهم أمور الدين.

٤. كما نتج من انفتاح بلاد تهامة والسراة للإسلام أن كان لكثير من سكانها السابق في الهجرة من بلادهم، والانخراط في منظومة الجيوش الإسلامية التي خرجت لتجاهد في سبيله، وتشارك في المعارك الإسلامية الفاصلة التي أدخلت بلاد الشام ومصر وفارس والعراق في حوزة الدولة الإسلامية. ومن يستقرئ المصادر التاريخية فإنه يجد التأثير الواضح للسرورين التهاميين الذي نتج عن انخراطهم وتغلغلهم في المجتمعات المختلفة داخل وخارج الجزيرة العربية.

٥. من خلال دراستنا لهذا الموضوع نرى أهمية دراسة فترة صدر الإسلام، وما نتج عنها من تأصيل حضاري وسياسي وفكري على مر العصور الإسلامية. ولا يكف الحديث عن الجانب السياسي الجهادي الذي اتصف به هذا العصر، ولكن الدراسة بالشرح والتحليل للآثار الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والفكرية التي تترتب عليه. فهذه الجوانب وغيرها من الجوانب الحضارية جديرة بالدراسة والبحث الجادين، والله من وراء القصد.

ثالثاً: بلاد السراة في العصر الأموي دراسة لبعض مظاهر الحضارة^(١)

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	تمهيد	١٢٣
ثانياً:	التبعية الإدارية والسياسية لبلاد السراة خلال العصر الأموي	١٢٤
ثالثاً:	الحياة الاجتماعية	١٢٧
رابعاً:	الحياة الاقتصادية	١٣١
خامساً:	الحياة العلمية والفكرية	١٣٤
سادساً:	خلاصة القول	١٤٠

أولاً: تمهيد :

يهدف هذا البحث إلى محاولة معرفة بعض الجوانب السياسية والحضارية لبلاد السراة^(٢)، الممتدة من الحجاز شمالاً إلى اليمن جنوباً، خلال العصر الأموي. وقد أدت صعوبة تضاريس المنطقة (من جبال، ووهاد، وهضاب وعرة المسالك) إلى إحجام المؤلفين الأولين (من الجغرافيين والمؤرخين) عن سبر أغوارها والكتابة عنها وهذا

(١) بحث قدم ضمن أعمال الندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، الجزيرة العربية في العصر الأموي (الأحد - الثلاثاء ٧-٩/١١/١٤٢٠هـ / ١٢-١٥/نوفمبر/ ٢٠٠٠م)، بجامعة الملك سعود - كلية الآداب. وقد نشرت هذه الدراسة في الكتاب الرابع من دراسات الجزيرة العربية، والخاص بالعصر الأموي، ص ١٤٩-١٦٤.

(٢) السراة: لفة أعلى الشيء، والسراة عند العرب تعني - أيضاً - الجبال المتقادة، الأخذ بعضها برقاب بعض ليس بينها فاصل تام، والسراة هنا: هي السلسلة الجبلية الواقعة غرب بلاد العرب، أو الممتدة من اليمن جنوباً إلى الحجاز ثم الشام شمالاً، وتخترق هذه السلسلة أودية وشعاب كثيرة يشرق بعضها، وبعضها يغرب، وهي ليست في مستوى واحد من حيث الاستواء، فمنها الشامخ في العلو، ومنها المنخفض ومنها المتوسط في الارتفاع. وقد أطلق بعض الجغرافيين القدامى على هذه السلسلة اسم (الطود) ونخص بهذه التسمية الجزء الجنوبي من جبال السراة، الذي يبتدئ بالطائف شمالاً وينتهي بنجران ثم صعدة وصنعاء جنوباً، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي من هذه الجبال بـ (الجبل الأسود)، ربما لأن صخوره بركانية سوداء، كما يسمى بالسراة، أو السروات، وكل قسم فيه ينسب إلى القبيلة التي تسكنه، وقد يدعى سراة دون (آل) التعريف، أما القسم الشمالي من السلسلة الممتدة من شمال مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وما يأتي بعدها فيسمى بحجاز المدينة أو السراة. أنظر: الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تحقيق محب الدين الخطيب (بيروت: دار المناهل، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ٢٥ وما بعدها؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ٢: ٢١٨، ٢٢٠، ج٣، ٢١٧، ٢٢٠ جرجي زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة: دار الهلال، د.ت) ٢: ٢٠٩، ٢١٠ صالح أحمد العلي، "تحديد الحجاز عند المتقدمين"، مجلة العرب، (١٣٨٨هـ / ١٩٧٨م) ص ٩٠١؛ عبد الله الوهبي، "الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب"، مجلة كلية الآداب، الرياض (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م)، ٥٣، ٧٠.

من الأسباب التي جعلتني أخوض بقلمي مع صعوبة مهمتي في الحديث عنها. ويعد الحسن بن أحمد الهمداني الشخصية المعرفية في أرض السراة وسكانها، لكثرة تنقله في أرجائها^(١).

ولم يقتصر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب على وصف الأماكن وتسميتها بأسمائها الجغرافية، أو بأسماء القبائل أو العشائر القاطنة فيها، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يذكر مواقع هذه القبائل أو العشائر في بعض المواطن من بواد ونجود وسهول وأغوار، متتبعاً أفخاذ هذه العشائر أو القبائل في الأماكن التي استقرت فيها ويمكن استعراض مظاهر الحضارة في بلاد السراة على النحو التالي .

ثانياً : التبعية الإدارية والسياسية لبلاد السراة خلال العصر الأموي ؛

رغم أن المصادر الإسلامية المبكرة شحيحة في معلوماتها عن الحياة الإدارية لبلاد السراة، لكن من المؤكد أنها كانت تتبع إدارياً أمراء الدولة الإسلامية في الحجاز، الذين كانوا يعينون على تلك الناحية من قبل خلفاء المسلمين الأول. ففي العصر الأموي نجد الفاسي يذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، في بداية خلافته، عين أخاه عتبة بن أبي سفيان على مكة وما يتبعها من أرض السراة ونجران، وعين أحمد بن خالد بن العاص على المدينة، وقيل مروان بن الحكم، وبعد ذلك عزل أخاه، وأضاف ولاية مكة والطائف إلى مروان بن الحكم، فأصبح بذلك والياً على الحجاز بكامله. ثم عزله عام (٤٩هـ/٦٦٩م) وولي سعيد بن العاص، وكان سعيد يقيم في المدينة وجعل ابنه عمراً نائباً عنه في مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب^(٢). وجمعت أيضاً لعمر بن سعيد بن العاص (الأشدق) عام (٦٠هـ/٦٧٩م) في عهد يزيد بن معاوية. وعقب موت يزيد في (١٤) من ربيع الأول (٦٤هـ/٦٨٣م)^(٣). قوي أمر ابن الزبير في مكة وما يتبعها من أرض السراة (يساعده الحارث بن حاطب الجمحي) ، وظل أمره كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان.

عمل عبد الملك على استعادة الحجاز. فبعث قواته بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تغلب على ابن الزبير، في جمادى الأولى عام (٧٣هـ/٦٩٢م)، وأخضع

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٦٤؛ لمزيد من التفاصيل عن الهمداني، انظر المقدمة التي كتبها حمد الجاسر في أوائل كتاب: صفة جزيرة العرب، وقاموس الأعلام، لخير الدين الزركلي (بيروت، ١٩٨٠م)، ٢: ١٧٩ .

(٢) انظر: تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من العلماء (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ٢: ١٦٦، ١٦٧ .

(٣) انظر عماد الدين إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار (القاهرة: مطبعة الفجالة، د. ت)، ٨: ٣٢٢، ٣٢٤ .

الحجاز واليمن لطاعة بني أمية، ولذا فإن عبد الملك بن مروان وولاه عليها جميعاً^(١). ولم يسبق لها أن اجتمعت لوال قبله، وعين الحجاج ولاية من قبله على تلك المناطق كِنُواب عنه يديرونها، وهو المرجع لهم، كان منهم أخوه محمد بن يوسف الثقفي والياً على بلاد السروات الممتدة من الطائف حتى صنعاء^(٢). فلما انتقل الحجاج إلى العراق عام (٧٥هـ/٦٩٤م) والياً عليها عقب وفاة واليها بشر بن مروان، أصبح ولاية تلك المنطقة يراجعون مباشرة الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان منهم الحارث بن خالد بن العاص المخزومي، والي مكة والطائف والسراة، (وقد سبق له أن تولاهما في عهد يزيد بن معاوية)، كما كان على المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص، عم الخليفة عبد الملك^(٣). واستمر محمد بن يوسف الثقفي -أخو الحجاج- والياً على اليمن وأصبح مرجعه المباشر هو الخليفة، إلى أن توفى هذا الوالي عام (٩١هـ/٧٠٩م) بعد (١٨) عاماً من ولايته لها^(٤). وتقلد ولاية مكة والطائف وما يتبعهما كثير من الولاة في عهد بني أمية، وبالأخص في عهد عبد الملك بن مروان، كما وليهما في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك، الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وأضيفت له المدينة المنورة فكان والياً على الحجاز بكامله، واستمرت ولايته من عام (٨٦هـ/٧٠٥م) حتى عام (٩٣هـ/٧١١م) وقيل عام (٩١هـ/٧٠٩م)^(٥). كما تولى ولاية مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب، أكثر من مرة، خالد بن عبد الله القسري البجلي .

ونلاحظ أن بعض الولاة جمعت له الولايات الثلاث : مكة والمدينة والطائف، بما يتبعها نحو الجنوب كجرش وبيشة ونجران مثل: عمر بن عبد العزيز والياً لها في عهد الوليد بن عبد الملك، وعبد الرحمن بن الضحاك القرشي عام (١٠٣هـ/٧٢١م)، ثم الذي خلفه في ولايتها وهو: عبد الواحد بن عبد الله الثقفي وكان عبد الواحد قد ولي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨، ٣٥٧، ٩ : ٤٠٣ .

(٢) انظر ابن زبارة، مختصر أنباء اليمن، ص ٤١؛ ابن حزم، الجمهرة، ٢٧٦. مات محمد بن يوسف في عهد أخيه الحجاج، وهو وال على العراق، ويوم أن جاء نعيه كان ابنه محمد بن الحجاج قد توفى منذ ساعة، فاسترجع الحجاج وقال: أمحمد، ومحمد في يوم ١٩. وكان عبد الملك قد ولي على المدينة طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان عقب مقتل عبد الله بن الزبير عام (٧٣هـ/٦٩٢م)، ثم عزله عنها عام (٧٤هـ/٦٩٣م) وأضافها للحجاج خلال وجوده بالحجاز فجعل نائبه فيها عبد الله بن قيس بن مخزومة. انظر: الطبري، تاريخ، ٦، ١٩٢، ٢٠١ .

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: الطبري، تاريخ، ٦، ٢٠٢، ابن حزم، الجمهرة، ٨٧ : الفاسي، شفاء الغرام، ٢ : ١٧٠ .

(٤) الطبري، تاريخ، ٦، ٤٢٦، ٤٩٨، ابن زبارة، مختصر، ٤١ .

(٥) الطبري ٦ : ٤٤٧، ٦٢٠ : ١٤، ٢٠، ٢٩، ٩١، ٢٢٦ : الفاسي، شفاء الغرام، ٢ : ١٧٢، ١٧٤ : ابن حزم، الجمهرة، ٢٤٦، ٢٦٤ .

الطائف فقط عام (١٠٣هـ/٧٢١م) عقب عزل عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد، ثم ضمت إليه الولايات الثلاث عام (١٠٤هـ/٧٢٢م) وأيضاً إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي - خال هشام بن عبد الملك - الذي وليها من عام (١٠٦هـ/٧٢٤م) حتى عام (١٢٥هـ/٧٤٢م)، ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي - ابن أخي الحجاج بن يوسف، وخال الخليفة الوليد بن يزيد - حيث تولاهما عام (١٢٦هـ/٧٤٣م)، وفي الوقت نفسه كان أخوه مروان بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على اليمن، وجمعت أيضاً لعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان عام (١٢٩هـ/٧٤٦م)^(١). وكان يحصل أن تنفرد ولاية بوال مستقل، يتلقى تعليماته مباشرة من قبل الخليفة، من هؤلاء هشام بن أبي سفيان الثقفي، الذي ولي أمر الطائف وما يتبعها نحو الجنوب دون ولاية مكة وذلك في عهد يزيد بن الوليد^(٢).

ونلاحظ من سياسة معاوية حرصه على اختيار الولاة من ذوي الحزم والحكمة في الاضطلاع بشؤون الرعية، مع ميله إلى إسناد تلك المناصب إلى رجال بني أمية، أو من يلوذون بهم، فإذا رغب في أن يولي أحداً من بني أمية ولم يسبق له أن تقلد منصب ولاية ولاء ولاية محدودة تتسم بالهدوء والاستقرار، مثل ولاية الطائف التي لا تردّها وفود، أو يطرق أرضها إلا عابر، فإذا رأى منه خيراً وأعجب بحسن سيرته وإدارته أضاف إليه ولاية أخرى، مثل ولاية مكة أو نقله إلى ولاية تستحق رعاية وسهراً دائماً، لكثرة ما فيها من اضطراب، كالبصرة والكوفة^(٣). وهذا ما فعله مع أخيه عتبة بن أبي سفيان، ففي بداية تقلده المناصب ولاء ولاية الطائف وحدها، وبعد عدة أشهر أضاف إليه ولاية مكة وبلاد السراة الممتدة من الطائف إلى نجران بعد أن لمس فيه حسن الإدارة، وتصريف شؤون الولاية. وكذلك مع مروان بن الحكم، فقد ولاء المدينة أولاً ثم أضاف إليه مكة والطائف وما يتبعهما، بعد عزل عتبة لمرضه، وهذا في حد ذاته يعطينا مؤشراً على مدى اهتمام خلفاء بني أمية بتلك الولايات الثلاث وتوابعها، وإسنادهم إياها إلى ذوي الكفاءة والمقدرة .

ونجد أن عمر بن عبد العزيز عندما ولي خليفة عام (٩٩هـ/٧١٧م) عقب وفاة سليمان بن عبد الملك، اختار ولاته من ذوي الورع والعلم وحسن الإدارة في سياسة الرعية، فأبقى على عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، والي مكة والطائف وما يتبعهما في عهد سليمان بن عبد الملك، وكان لعمر مشورة من قبل

(١) الطبري، ٦: ٤٤٧، ٧: ٦٢٠، ١٤: ٢٠، ٢٩، ٩١، ٢٢٦. الفاسي، شفاء الغرام، ٢: ١٧٢، ١٧٤.

(٢) ابن حزم، الجمهرة، ٢٦٨.

(٣) الطبري، تاريخ، ٥: ٢٩٦.

في تعيينه والياً على مكة من قبل سليمان، كما عين على المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وهو من فقهاء المدينة المشهورين^(١). ويأتي يزيد بن عبد الملك فيفصل ولاية الطائف وما يتبعها من بلاد السراة عن ولاية مكة، ويولي عليها عبد الواحد بن عبد الله من ثقيف، ويولي مكة والمدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، وذلك عام (١٠٣هـ/ ٢٢١م)^(٢). لكن لم تلبث أن انضمت تلك الولايات الثلاث تحت والٍ واحد في عهد هشام بن عبد الملك إلى نهاية عهد بني أمية في معظم الأحوال .

ثالثاً : الحياة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية في بلاد السراة، كما تخبرنا بعض المصادر الإسلامية المبكرة، فقد بينت أن التركيبة السكانية في هذه البلاد تقوم على القبيلة، مشيرة إلى مواطن القبائل وفروعها في هذه البلاد، فمثلاً، قبائل الأزد بمختلف فروعها استوطنت البلاد الواقعة ما بين نجران وجازان إلى الطائف وتهائم مكة في الشمال، وقد اختلط مع هذه القبائل، قبائل عدنانية، والاختلاط بين القبائل العدنانية والقحطانية في بلاد السراة قائم منذ أمد^(٣). الأمر الذي أدى إلى اندماج العشائر النزارية مع القبائل الأزدية، باعتبار الأولى أقل عدداً من القبائل الأزدية القحطانية، فانددمجت بها أحياناً تحت ظروف القهر والغلبة، أو الجوار والمصاهرة، ويفهم من حديث الهمداني عندما قال: " ثم سراة زهران من الأزد، ودوس، وغامد، والحر، نجدها بنو سواة بن عامر، وغورها لهيب، وعويل من الأزد وبنو عامر، وبنو سواة خليطي والدعوة عامرية"^(٤) فالاختلاط والاندماج كان قائماً، فبنو سواة خليط من أفخاذ وعشائر سواة كانت قحطانية أو عدنانية، وأحياناً يكون خليط مجموعة من العشائر مندرجا تحت مظلة واحدة أو اسم قبيلة أو عشيرة معينة .

وفي حديث بعض المصادر عن السراة، لم تذكر وجود طبقة معينة من العبيد بها، لكن لا نستبعد أن يكون قد وجد بها نسبة منهم، لأجل وقوعها في الوسط بين حواضر الحجاز واليمن الكبرى، التي اشتهرت بنشاط أسواقها في بيع العبيد وشرايتهم، وغيرهم من السلع المختلفة، إلى جانب أن أغوار بلاد السراة تطل على البحر الأحمر الذي يوجد

(١) الطبري، تاريخ، ٦: ٥٥٧، ٥٥٨ : ابن كثير، البداية والنهاية، ٩: ٢٠٧ .

(٢) الطبري، تاريخ، ٦: ٦٢٠ : الفاسي، شفاء الغرام، ٢: ١٧٤ .

(٣) لمزيد من التوضيحات عن القبائل القحطانية (الأزدية) والعدنانية في بلاد تهامة والسراة، انظر : هشام بن محمد الكلبي، جمهرة النسب الكبير، رواية السكري عن ابن حبيب، تحقيق ناجي حسن (بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨١م) ؛ ابن حزم، الجمهرة، ١٨ وما بعدها: عمرو بن غرامة العمري، قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام (أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) . ١: ٥٧ وما بعدها .

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١١٩ - ١٢٠ .

به عدد من الموائئ التي كان لها صلات جيدة مع مصر والحبشة والسودان والصومال وغيرها من بلاد العالم^(١). أما طبقة الموالي في بلاد السراة فقد أوردتها أحد المصادر الإسلامية المبكرة صراحة عند حديثه عن جرش فقال: " وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش"^(٢). ولعل جرش نالت هذا التخصيص بسبب كثرتهم، الأمر الذي أدى إلى فرض وجودهم، مع العلم أن النص الذي أورده هذا المصدر لا يوضح إلى من ينتسب إليه أولئك الموالي من قريش^(٣). لكن الأهم من ذلك أنه ربط مهنة الجزارة بالموالي دون سواهم، لأن القبائل العربية تأنف أن تتخذ مثل هذه المهن وأشباهاها، وفي هذا يقول ابن خلدون في فصل خاص بمقدمته: " أن العرب أبعد الناس عن الصنائع"^(٤). والملاحظ أن المهن إلى اليوم لها انعكاسات على أصحابها في بعض المجتمعات العربية .

وأثناء حديث المصادر الإسلامية الأولى عن مواطن السكان ومجاورتهم بعضهم بعضا، لم تذكر معلومات عن نوعية مساكنهم ومرافقها، ولم توضح كيف تبني بيوتهم، وكيف تصمم، ونوع الأثاث الذي كان يوضع بها مع العلم أن بعض تلك المصادر ذكرت تفصيلات عن بناء البيوت ومرافقها في حواضر اليمن الكبرى، فأشارت إلى سعة بعض الدور، عند الأغنياء خاصة في صنعاء وغيرها من المدن الكبرى، واستخدام الحجارة في البناء على هيئة طابقين ونادرا ما تكون أكثر من ذلك، وغيرها من المعلومات الجيدة حول

(١) النشاط التجاري خلال العصور الوسطى كان جيدا، وبخاصة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة بالحجاز، وصنعاء وصعدة وغيرها من مدن اليمن الكبرى، إلى جانب وجود طرق تجارية، برية وبحرية نشيطة تربط تلك الحواضر مع أجزاء عديدة في العالم الإسلامي آنذاك. ولمزيد من التفصيل انظر في المصادر والمراجع التالي ذكرها. شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق إم دي خويه (ليدن: بريل، ١٩٧٦ م)، ٧٩، ٩٧؛ محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت: د.ت.)، ٩٦، وما بعدها؛ ناصر الدين خسرو المروزي، رحلة ناصر خسرو، ترجمة وتقديم أحمد خالد البديلي. (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)، ١٢١، وما بعدها؛ غيثان علي جريس " الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة، " مجلة العرب، ٢٦، ع ٧، ٨ (١٤١٢هـ)، ٤٤٧، ٤٦١ .

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥ ٢٥٦ .

(٣) كان العرب في صدر الإسلام ولاسيما في العهد الأموي يسمون غير العرب من المسلمين بالموالي. وكان المسلمون في البلاد العربية، كالعراق، والشام، والحجاز، وغيرها، قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة والانتساب إلى قبائلها اسميا، وإن لم يكونوا منها فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب، كالمساعدة، والحماية، والتأييد. ومن الموالي أيضا من كان في منزلة الرق ثم أعتقوا من قبل ساداتهم فصاروا في مكانة أخرى بين الرق والحرية هي منزلة الولاء أو الموالي. لمزيد من التفصيل عن الولاء انظر. محمد بن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت: در إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٥: ٤٠١، ٤٠٦ .

(٤) عبد الرحمن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون (بيروت: دار العلم للجميع، د.ت)، ١: ٣١٨ وما بعدها.

البناء وما يتعلق به. ^(١) ونظراً للمجاورة بين بلاد السراة وحواضر اليمن فليس ببعيد أن يكون شكل بعض الأبنية والمواد المستخدمة في بنائها مثلما هو الحال في صنعاء وغيرها.

والطريف في روايات الرحالة الهمداني أنه لم ينس ذكر بعض الأماكن التي وجد بها بعض المراكز الحضارية، فيذكر منطقة جرش قائلاً: " ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز، ثم تندحة، وهي العين من أودية جرش، وفيها أعناب وأباروساكنه بنو أسامة من الأزد، ورأيت بعضهم يجذب إلى شهران العريضة، والعيبا بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز، ويليها وادي طلوعان كثير المزارع لبني أسد من عنز، والقرعا لشبيبة من عنز ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع يقال لها المسقي وهم مسلمون للعواسج " ^(٢).

وعلي نحو هذا العرض الذي تفرد به الهمداني لبعض أجزاء بلاد جرش، نجده أيضاً يذكر أسماء بعضها، وبقي أسماء بعض آخر إلى يومنا هذا، وكل ما ورد ذكره فهو يغطي أجزاء من المناطق المعروفة حالياً بخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومنتزه القرعا والجرة وما حولهما. ونراه ينوه بذكر شبيبة من عنز في أرض القرعاء (الفرعاء حالياً)، وبين أن لهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع، فهذا يدل على دقة ملاحظته، فلم يكن يغفل عن حجم القرية التي كانت كبيرة، وبها مسجد جامع للمصلين. ^(٣) عندما كان يعبر بلاد السراة في ذهابه وإيابه ما بين الحجاز واليمن. ولم يكن أيضاً يغفل عن ذكر بعض المراكز الحضارية، وتجمعات المواطنين السكنية بها. فيورد أسماء بعض القرى الهامة في جرش، كتندحة، وغيرها، ثم يذهب إلى سراة بلاد الحجر، فيذكر بها تنومة، ثم يقول: " وهي واد فيه ستون قرية أسفله لبني يسار، وأعلاه لبلحارث بن شهر " ^(٤). ثم يشير إلى مدينة الجهوة التي تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، ويواصل تدوين ملاحظاته الجيدة عن بعض القرى في سراة خثعم، وبلقرن، وشمران، وغامد، وزهران، وبجيلة حتى مدينة الطائف، والملاحظ أن الأماكن التي أشار إليها لم تبق على ما كانت عليه، بل تغيرت في تقسيماتها، وأحياناً في أسمائها، فعلى سبيل المثال كانت منطقة الجهوة في

(١) انظر تفصيلات أكثر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٤٤ وما بعدها؛ ولزيد من التوضيحات عن الحياة الاجتماعية في حواضر اليمن، وبخاصة في صنعاء وما حولها، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ٨٤ وما بعدها؛ أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق، إم دي خويه ليدن: بريل، ١٩٨١م)، ١٠٩، ١١٥؛ وانظر: غيثان بن علي بن جريس، عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١١٠ - ١٤٠٠ هـ / ١٦٨٨ - ١٩٨٠م) (جدة: دار البلاد، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م)، وما بعدها.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٥٧.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٥٦، ٢٥٧.

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٦١.

زمنه تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، وهي من أرض بني شهر لسراة الحجر، لكنها في الوقت الحاضر أصبحت جزءاً صغيراً من قرية بني بكر التابعة لمنطقة النماص^(١).

أما الموائد والأطعمة التي حفظتها لنا بعض المصادر الأولية، فكان جلها من الثريد، وهو خبز يفت ويبل بالمرق، ويوضع فوق اللحم^(٢). ولعله يشبه ما يسمى ببلاد الشام (بالفتة). والمضيرة، وهي طبخ اللحم باللبن حتى ينضج وتختثر المضيرة، ثم تعد للأكل، وموائد أخرى تتضمن الخبز، والزبد، واللبن، والحليب، واللحوم. وجميع هذه الأطعمة محلية لتوافر موادها في بلادهم، فالقمح، والذرة، والشعير تزرع في السراة بكميات كبيرة. أما اللحوم والحليب، فتؤخذ من مواشهم الموجودة بكثرة حسب المراعي الشاسعة. وأشاد الهمداني بنوع من الأطعمة، يسمى اللحوح (ولا يزال معروفاً في بلاد السراة إلى وقتنا الحاضر)، وهو خبز رقيق يصنع من الذرة، ويستخدم عادة مع اللبن، وقد لاحظ رفته فوصفه بالقول: "إنه إذا وقع في اللبن استرخى فلا يحتمل إلا بأكثر الأصابع"^(٣). وأشار إلى أطعمة السفر التي يتزود بها المسافر من اليمن إلى الحجاز، وربما تزود بها أهل السراة، فقال: "وكنا نستعمل في أسفارنا الخبز والسمن واللحم والكشك والمهاد"^(٤). وكان من أفضل المشروبات عند أهل السراة شراب اللبن مع الزبدة، ومن أفضل المأكولات السمن الذي يستخرج من ألبان المواشي، حيث كانوا يستخدمونه مع الخبز والعصيد والهريس^(٥). وهذا النوع من الطعام مازال مرغوباً وخاصة عند المسنين من أهل تهامة السراة.

وبالنسبة للعادات والتقاليد عند أهل السراة كالكرم، والشجاعة فهو أمر معروف. وأما عن التكافل والتآزر، سواءً في المواسم أو الأعياد أو المآتم أو غيرها من المناسبات، فقد أشارت المصادر إلى ذلك باقتضاب شديد حينما تتحدث عن النواح (البكاء والعيول) أثناء المآتم بأرض السراة ومشابته بنواح اليمن، وتبين أن غالبية الذين يقومون به هم من النساء والعييد والموالي^(٦).

(١) لمزيد من المعلومات عن الحياة التجارية في اليمن والحجاز وعلاقة تلك الأجزاء ببلاد السراة، انظر: ابن جبير، الرحلة، ١٠٠ وما بعدها؛ ابن جريس "الطرق التجارية" ٤٤٧ وما بعدها؛ أحمد عمر الزليعي؛ مكة وعلاقتها الخارجية (٢٠١/ ٤٧٨هـ) (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨١م)، ١٥٥ وما بعدها.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٤٠، ٣٥٦.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٤٠.

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٥٦، والمهاد، هو الخبز المهود. والكشك يتخذ من نقع البرغل بعد اختماره فيفت ويطبخ، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٥٦، ملاحظة (٢).

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠.

(٦) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٦٥. وقد أخبرني بعض المختصين في تاريخ المغرب والأندلس، فذكر أن مثل هذه العادة كانت ومازالت عند بعض المغاربة، وبخاصة في المغرب الأقصى.

رابعاً : الحياة الاقتصادية :

الحياة الاقتصادية في هذه البلاد التي حباها الله بعبدة مزايا تؤهل ساكنيها على مزاوله العيش فيها، فهناك المراعي، والأراضي الزراعية الخصبة، وهناك الموقع الجغرافي الهام، كل هذا ساعد على امتهان الرعي ومزاوله الزراعة والتجارة، والحرف اليدوية على مختلف أنواعها، فالرعي عند أهل البادية من المهن الأساسية في الحياة، يشاركونهم فيها. أحياناً. أهل الحضرة، ونتيجة لكثرة المراعي وأهميتها في مقومات الحياة، فقد ذكرها الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب فقال : ((والصحن مراعي لبني شهر نجدية مما يصالي ببيشة))^(١). ويبدو أن المناطق الشرقية من السراة تمتاز بكثرة مراعيها، مما جعلها منطقة رعي عندهم إلى زمن قريب، والأكثر من هذا أننا نجد حواضر تزاوّل الرعي إلى جانب الزراعة، وهذا مما يعبر عنها عند علماء الاجتماع بنهاية مرحلة الانتقال وبداية مرحلة الاستقرار الدائم، مع التنوع في أساليب العيش لتحسين الدخل.

ومن المواشي التي ورد ذكرها في بعض المصادر خلال القرون الإسلامية الأولى عند أهل السراة، (وبقيت إلى زمن قريب) الماعز، والضأن، يليها الإبل، التي كانت تكثر في المراعي الشرقية للسراة لما يناسبها من اتساعها وتوافر أعشابها، إلى جانب الأبقار والمطايا من الحمير وغيرها في البلاد السروية عامة، وفي الأجزاء النجدية والتهامية معاً. وذكر الهمداني أفخاذاً وعشائر في مناطق متعددة من بلاد السراة، اقتصر عملهم على رعي الماشية، وجمع الحطب، وصيد الحيوانات البرية، ومعظمهم من سكان المناطق الشرقية للسراة^(٢). ويبدو من كلامه أيضاً، أن الزراعة كانت لها الأولوية بين المهن، لكثرة المزارع والبساتين وما بهما من خضر وفاكهة، ويعود ذلك لوفرة المياه من الآبار والأودية، ونزول الأمطار في معظم أيام السنة بسبب هبوب الرياح الموسمية على اليمن وعلى بلاد السراة بشكل عام، ومما يجدر ذكره بهذا الخصوص قوله: **(وبسراة الحجر البر، والشعير، والبلس، والعترة، واللوبيا، واللوز، والتفاح، والخوخ، والكمثرى، والإجاص والعسل)**^(٣). ويذكر ثانية سراة الحجر، ثم نحيان واد مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار^(٤)، ويذكر عدة أصناف من المحاصيل الزراعية

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٦٢ .

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٦٢، ٣٠٢ .

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٦٢ .

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٦١ .

التي اعتاد الفلاحون زراعتها، في بلاد جنب، وعنز، وغامد، وزهران، وبجيلة، وغيرها من المناطق الأخرى، وهذا يدل على صلاحية المنطقة للزراعة، لما تحويه من وفرة المياه، وخصب التربة، لكن مع الأسف لا نجد ذكراً لأساليب من الزراعة المستخدمة في المنطقة، ولا كيفية بناء المدرجات الزراعية وحفر الآبار لاستخراج الماء من باطن الأرض، رغم وجودها منذ زمن بعيد^(١).

والملاحظ أن هذه المنطقة غنية بالأشجار والأعشاب البرية، ومن هذه الأشجار: شجر الطرفاء، والأثل، والسلم، والقرض والشبرم والشوحط، والتالب، والشث وغيرها^(٢).

أما الحرف والمهن اليدوية في بلاد السراة، فلم تكن تهتم المصادر الإسلامية المبكرة بذكرها بشكل واضح، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك العديد من الحرف التي يتم مزاولتها لدى أهل البلاد، والسبب الذي يجعلنا نجزم بوجود بعض منها، هو أن المقومات الأساسية لبعض الحرف كانت متوافرة، وأشار الهمداني إلى بعضها، فمثلاً حرفة الدباغة كانت تحتاج إلى مناخ معتدل، وإلى جلود المواشي، وكذلك إلى بعض أوراق الأشجار المهمة في عملية الدباغة، وكل هذه الأشياء في متناول أيدي أهل السراة^(٣). وقس

(١) من يلاحظ الآبار والمدرجات الزراعية ببلاد السراة، في يومنا هذا يلاحظ الجهد الكبير الذي بذل في بناء مدرجات عالية الارتفاع، لكي تحافظ على تربة المزرعة، وكذلك آبار بعيدة العمق، وبعضها حُفرت في صخور صماء، وبأدوات يدوية قديمة. حبذا لو خرج أحد أبناء السراة بدراسة علمية جادة تتبع فيها متى وكيف عملت تلك المدرجات الزراعية، التي نلاحظها في طول وعرض البلاد، وكذلك تلك الآبار الكثيرة التي يظهر على بعضها قدم العهد.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٢٦، ٣٠١. لم يكن رحالة اليمن الهمداني هو الوحيد الذي انفرد بذكر ما في السراة من أشجار برية متنوعة، بل سبقه في ذلك أبو حنيفة الدينوري، ومن يطالع كتابه (النبات) يجد أنه لا يكتفي بذكر أسماء الأشجار، بل يشير إلى وصفها من حيث شكلها، والمناطق الملائمة لها، وأين تكثر وأين تقل، والأغراض المستخدمة من أجلها، سواء كان في التجارة أو في الدباغة، أو الصباغة أو غيرها. ويعتبر الدينوري من أفضل من كتب عن النباتات وبخاصة في بلاد السراة من بلاد الجزيرة العربية، ومن كتبه التي وصلتنا عن النباتات ما يلي: كتاب النبات، الجزء الأول والثاني، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٣م)، الجزء الثالث، النصف الأول من الجزء الخامس، شرح وتحقيق المستشرق برنهارد لفين، بألمانيا عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م. وقد جاء بعد الدينوري والهمداني بعض الجغرافيين واللغويين فذكروا أسماء عديدة للأشجار والنباتات الموجودة ببلاد السراة، ومن أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر، عرام بن الأصبغ السلمي، في كتابه أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، والبكري في كتابه معجم ما استعجم، وياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، وفي بعض المعاجم اللغوية، كالقاموس المحيط للفيروز آبادي، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن مهنة الدباغة، وكيفيةها، وأساليب مزاولتها، والمواد الأساسية في ممارستها، انظر: "باب الدباغ" المذكور في كتاب النبات للدينوري، تحقيق المستشرق برنهارد لفين، ١٠٤، ١٢١، أيضاً انظر: كتاب المخصص لابن سيده (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م)، ٤: ١٠٤-١١٦.

على مهنة الدباغة مهناً أخرى، كالخرازة، والحدادة، والخياطة، والصياغة وغيرها من الحرف الكثيرة^(١).

لم يفضل الهمداني عن ذكر الجانب التجاري في بلاد السراة أثناء تجواله في ديارها من الجنوب إلى الشمال بسبب امتنانه مهنة الجمالة، حيث كان هو وصحبه ومن شاركهم في هذه المهنة يحملون أمتعة المسافرين والتجار على جمالهم، لكنه مع الأسف لم يذكر لنا تقاليدهم المتبعة في هذه المهنة، من حيث الأجور، هل تحسب بحساب الزمن ونوع الأمتعة، أم بالمسافة وكمية الأمتعة، كما أنه لم يشر إلى كيفية التعامل والتبادل التجاري الذي كان معمولاً به في المراكز التجارية ببلاد السراة، ولا إلى الأعراف التجارية والعقود المبرمة بين أصحاب المهن والتجار، في كل من حواضر اليمن والحجاز، كالتائف ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وصنعاء، وصعدة، وغيرها من الحواضر الأخرى، حيث نشطت التجارة في هذه الحواضر منذ أمد بعيد. حتى أصبح لها تراث تجاري زاخر في التقاليد والأعراف التجارية، وهذا ما أشاد به الجغرافيون والرحالة المسلمون الأول، وخاصة ممن كانت مؤلفاتهم في ذكر الأقاليم، وما يوجد بها من خبرات، وذكر المسافة فيما بينها^(٢). وخص أولئك الجغرافيون الطرق التجارية التي كانت تربط الحجاز باليمن مارة ببلاد السراة، ابتداءً من صنعاء وانتهاءً بمكة المكرمة، فذكروا الطريق الممتد من صنعاء ماراً بصعدة، فجرش، فبيشة حتى الطائف ثم مكة المكرمة، والأكثر طرافة في الأمر أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال، وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه

(١) ولمعرفة بعض التوضيحات عن المهن والحرف بشكل عام خلال القرون الإسلامية الأولى، وبخاصة في المناطق المجاورة لبلاد السراة كحواضر الحجاز واليمن، انظر: عبد العزيز إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (ﷺ) (الدوحة: مركز التراث الشعبي، ١٩٨٥م)، ٤٧ وما بعدها، عبد الله محمد السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ١٥١، ١٦٨؛ جميل حرب محمود، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي (جدة: دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ١٢٦، ١٢٨، ١٤٨، ١٥٠؛ غيثان بن علي بن جريس، "أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة"، مجلة المنهل، ٥٢، ع ٤٩٢ (١٤١٢هـ)، ٨٢، ٩٦.

(٢) لمزيد من التفصيل عن النشاط التجاري في حواضر اليمن والحجاز خلال العصر الإسلامي الوسيط. انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم، ٨٤ وما بعدها؛ ابن جبير، الرحلة، ٩٦ وما بعدها؛ الزليعي، مكة

وعلاقتها الخارجية، ١٥٥ وما بعدها؛ حرب، الحجاز واليمن، ١٥٩، ١١٧.

Hassan. "The Arabian Commercial Background," Islamic Culture. 46.No 2(April 1987). 70. 83.Patrica Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford : Basil Blackwell,1987).

منها^(١). وذكر الطريق الساحلي الذي يربط الحجاز باليمن ماراً بالسهول الواقعة على الساحل بمحاذاة البحر الأحمر، ذاكرا المراكز والمحطات التي يمر بها بعد مروره من اليمن، ومن تلك المراكز، حلي، وقتونا، ودوقة، والسرين، والليث، وغيرها حتى يصل مكة المكرمة، وهناك طريق تجاري آخر يصل حضرموت بمكة المكرمة، ويلتقي مع طريق صنعاء مكة المكرمة في محطة تبالة^(٢).

خامساً : الحياة العلمية والفكرية :

كان الجو العلمي والفكري في السراة مناسباً لنمو البذور العلمية بسبب وضع السراة المميز ما بين اليمن والحجاز فلا بد أن تنال قسطاً وافراً من العلم سواءً من علماء اليمن أو علماء الحجاز، خاصة وأنها معبر لأهل اليمن أثناء توجههم لمكة والمدينة. والقارئ لكتب التراجم وغيرها من كتب الأولين، ككتاب الطبقات لابن سعد، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، كل هذه الكتب وغيرها يجد فيها القارئ معلومات قيمة عن علماء وفقهاء، وشعراء وأرباب سيف وغيرهم، عاشوا في حواضر هذين القطرين (اليمن والحجاز) وفي غيرهما من حواضر العالم الإسلامي، كالكوفة، والبصرة، ودمشق، وبغداد، وغيرها، وبعضهم كانوا بالمولد من أهل السراة، وهم حجازيون، أو يمنيون، أو كوفيون، أو دمشقيون بالاستقرار. ولكن مع الأسف لم نجد لهذه المنطقة (السراة) ذكراً واسعاً وصريحاً في مثل هذا المجال. ولعل السبب في ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين والمؤلفين بشكل عام بالمراكز الحضارية الشهيرة في العالم الإسلامي، أكثر من اهتمامهم بالمناطق المغفورة، والواقع أن منطقة السراة ظلت منسية ردحا من الزمن .

ونجد بعض المصادر الأولية تدون لنا معلومات يسيرة استفدنا منها بعض الشيء في معرفة أحوال بلاد السراة من جميع الجوانب، لكن على الرغم من أهميتها، فإنها لم تَفِ بالمطلوب في معرفة الحياة العلمية وأساليب التعلم فيها، وفي التعرف على الشعراء

(١) حول شرح الهمداني لأطوال تلك الطريق التي تربط بين صنعاء والطائف مروراً بالسراة، انظر: صفة جزيرة العرب، ٢٢٨. ٣٤٠ لم يكن الهمداني هو الوحيد الذي ذكر تلك الطريق، وإنما البعض من الجغرافيين الأوائل أشاروا إليها أيضاً مثل: اليعقوبي، البلدان، ٣١٤ وما بعدهما؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، تحقيق إم. دي خويه (ليدن: بريل، ١٣٠٦هـ / ١٨٩٩م)، وما بعدها. وضمن هذا الكتاب، كتاب الخراج وصناعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر، الذي أشار أيضاً إلى ما أشار إليه اليعقوبي وابن خرداذبة، ١٩١ وما بعدها، انظر أيضاً: الإمام أبو إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ٦٤٣، ٦٤٩.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٤١-٣٤٢.

والأدباء والعلماء الذاهبين إلى بلاد الحجاز أو اليمن التي كانت أسعد حظاً من منطقة دراستنا. وسوف نستعرض بعض الشعراء من أبناء السراة خلال العصر الأموي .

١. ابن الدمينة : عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر بن تيم الله^(٢). لم يعرف تاريخ ولادته ووفاته وإنما عاش ومات خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري منتقلاً في أرض الجزيرة العربية من بلاد السراة إلى صنعاء والشام وبغداد، ومن أسماء الأماكن في السروات التي وردت في قصائده وتدل على انتمائه إليها قوله في بيشة (ممتدحاً معن بن زائدة)^(٤).

لولا رجاؤك لم أسر من بيشة أرض العراق بفتية ورواحل^(٥)

وذكر في أبيات أخرى أسماء المواقع في بلاد قحطان وشهران والحجر، كما ذكر أبياتاً كثيرة يفخر بقومه خثعم، فيقول :

خثعم قومي ما من الناس معشر أعم ندى منهم وأنجى لخائف^(٦)

٢. أحمد بن يزيد بن عمرو القشبي :^(٧) هذا الشاعر ينتهي نسبه إلى حمير، ثم يعرب بن قحطان، كان يسكن بصعدة مع صديقه الشاعر محمد بن إبان الخنزري^(٨). في عهد الدولة الأموية، وكان صديقاً وحليفاً وصهرًا له فقد تزوج من أخته الفارعة ابنة أبان.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : ديوان ابن الدمينة، جمع وتحقيق أحمد راتب النفاخ، تقديم ومراجعة محمود محمد شاكر (القاهرة: دار العروبة، ١٣٧٨هـ)، ١٤ وما بعدها. أيضاً انظر : عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٤٩٢-٤٩٣؛ للمزيد أيضاً انظر: " أخبار ابن الدمينة ونسبه، "كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ط٢ (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ١٧: ٩٨-١١٢.

(٤) معن بن زائدة الشيباني من رجال الدولة الأموية والعباسية ومن أجواد العرب، ومن القادة المذكورين بالبأس والنجدة، وكان فارساً شجاعاً : انظر : الطبري، تاريخ، ٧: ٥٠٥، ٥٠٨.

(٥) ديوان ابن الدمينة، ٣٥ .

(٦) ديوان ابن الدمينة، ٣٧، وله أشعار عديدة في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٤٩٢ وما بعدها ؛ وكذلك في كتاب الأغاني، ١٧: ٩٨ وما بعدها .

(٧) للمزيد عن أخبار هذا الشاعر انظر: الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية، ١٩٦٦م)، ٢: ١٢٨، ١٦٣، ١٦٦؛ أحمد بن محمد الشامي. قصة الأدب في اليمن (بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة، ١٩٦٥م)، ٢٥٧-٢٦٣ .

(٨) ولد الشاعر محمد بن أبان الخنزري بصعدة في خلافة الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) سنة خمسین للهجرة، ونشأ بها، يعود نسبه إلى يعرب بن قحطان. لمزيد انظر : الشامي، قصة الأدب في اليمن، ٢٥٧ وما بعدها .

لما نشبت الحرب بين الربيعة والسعديين قام القشيبى مع ابن أبان في هذه الحرب وأفرى في السعديين وذلك على حد المصاهرة والحميرية كما يقول الهمداني إذ لم يكن للشاعر شأن بهذه الحرب.

لما اصطاح الحيان وعادت بطون السعديين وأحس أنه قد أوجع القوم في حرب لم يكن طرفاً فيها خاف على عقبه من بني سعد بن سعد فارتحل إلى نجد وحالف بعض القبائل اليمينية كزبيد ونهد وجنب حتى يعتز بهم ويقوى ثم تقدم فنزل رياض تنادح (ببلاد شهران حالياً) في جمع من أهل بيته وخدمه وحواشيه ومن رغب الظعن معه من قومه^(١).

لما طال المكث به وتمادى في المقام اجتمعت إليه قبائل عنز (عسير) وكلمته في النزول بأرضها وأحميتها فسألهم المهلة حتى يعود رواده الذين بعثهم إلى نواحي الطائف وأنه لمرتحل، ولكن عنز رأت ذلك مما طلة ومدافعة منه، وألحت عليه في طلب الارتحال، وكره سرعة الرحيل، وجرت بينه وبين القوم مشادة وملاحاة حتى فزع كل فريق إلى سلاحه، وبعث الشاعر الصريخ يستجد بأحلافه زبيد وجنب ونهد وكان منهم حلال بالقرب منه فأنجدوه، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً انهزمت بعده عنز بعد أن قتل جمع من أشرفها ورؤسائها. وبعدها ارتفع الشاعر من رياض تنادح إلى قرية جرش حتى يكون قريباً من أحلافه واستوطنها ولكن الحرب لم تنته بل ظلت مشتعلة بين الحيين. وكانت له أشعار ومناقضات مع محمد بن أبان في تلك الحرب وكان يبعث بها إليه في صعدة^(٢).

ولم يحدد الهمداني الذي أورد أخباره مكان وفاته وزمانها، ولم تذكر المصادر الأخرى شيئاً عنه وستظل وفاته مجهولة لنا إلى أن تكشف لنا كتب التراث هذا المجهول. وشعر أحمد بن يزيد قوي الأسلوب فخم التعبير يمثل العصبية القبلية عامة والعصبية اليمينية خاصة. ولعلنا نلمس هذه الشدة في اللفظ والمعنى في قصيدته التي بعث بها إلى محمد بن أبان يصور فيها بلاءه وبلاء أحلافه حيث يقول:

ودبت إلينا في كتائبها تسري	فلففت عنز علينا وأجلبت
تبختر في الماذي والحلق الخضر	وساقت علينا من معد قبائلاً
وخلوا بلاد الأكرمين ذوي الفخر	فقاتل معد ارحلوا من سيوفنا
وقالوا لنا بالجد منهم وبالنصر	فسارت إلينا من زبيد عصابة

(١) انظر: الهمداني، الإكليل ٢: ١٢٨، ١٦٣ وما بعدها؛ الشامي، قصة الأدب، ٢٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الهمداني، الإكليل ٢: ١٢٨، ١٦٣ وما بعدها؛ الشامي، قصة الأدب، ٢٥٨ وما بعدها.

وجاءت بنو نهد بن زيد بعارض
يقودون شعناً في الأزمة ضمراً
إذا صبحت في الروع يوماً جيادهم
ظننت ضجيج القوم بين رماحهم
وأردف من يام وحي عدية
وغوري جنب في عرين حبيضة
من المزن دانيئ الرعد منبجس القطر
يبارون سرب القوم في وضح الفجر
منازل قوم في أعنتها تجري
صليل رداة النيق في حرشف الصخر
فوارس ليس الميل في ساعة الكر
يرن عزيز الجن في شاهق وعمر

ويمضي على هذا النحو إلى آخر القصيدة التي تبلغ أربعة وعشرين بيتاً ينتقل من معنى إلى معنى في قوة الفارس وصلابة المحارب^(١).

٣. **جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي** : ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان. ويكنى بأبي عارم وهو ابنه وفيه يقول عند مقتله^(٢).

أوصيكم إن مت يوماً بعارم ليغني شيئاً أو يكون مكانيا

ولد هذا الشاعر ونشأ بنجران بلاد بني الحارث بن كعب، وكان فارس قومه وشاعرهم، كما كان أبوه شاعراً أيضاً. وكغيره من شعراء عصره لم نجد تحديداً لميلاده أو أخباراً عن نشأته الأولى. وكل ما نعرفه من أخبار هذا الشاعر تلك الحادثة التي أودت بحياته، لكنها حفظت لنا بعض أخباره وهي حادثة قتله لأحد العقيليين ورفع أمره لوالي مكة ثم حبسه والقود منه بقتله. واضطربت الروايات حولها واختلفت. ولعل أبا الفرج الأصفهاني خير من يعطينا صورة لهذا الاضطراب وذلك الاختلاف حيث يقول : **(وكان جعفر قتل رجلاً من بني عقيل : قيل : إنه قتله في شأن أمة كانايزورائها فتغابرها عليها. وقيل : بل في غارة أغارها عليهم. وقيل : بل كان يحدث نساءهم فنهوه فلم ينته، فرصدوه في طريقه إليهن فقتلوه فقتل منهم رجلاً فاستعدوا عليه بالسلطان فأقاد منه)**^(٣). ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن الشاعر قد رفع من نجران وحبس بمكة^(٤). في القرن الثاني للهجرة، تردد الوالي في قتله لخوولة

(١) الهمداني، الإكليل، ٢ : ١٦٥ وما بعدها ؛ الشامى، قصة الأدب، ٢٦١ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الشاعر انظر : أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني (بيروت : مؤسسة جمال للطباعة، عن طبعة دار الكتب المصرية، دت)، ١٢ : ٤٥ " جعفر بن علبة الحارثي " : " حياته وما تبقى من شعره " ، جمع وتحقيق ودراسة شواذ في أحمد علام، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر) (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م)، ٣٤١ - ٤٢٩ .

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ١٢ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٣٤٦ وما بعدها،

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ١٢ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي، ٣٤٦ وما بعدها

أبي جعفر المنصور في بني الحارث بن كعب، لكن العقيليين أقاموا القسامة عليه وهددوا الوالي إن لم ينصفهم ليقدم من على الخليفة المنصور، ويجيب الوالي بعد هذا التردد بقتله .

وكما اختلفت الروايات في تحديد أسباب الحادثة التي أدت إلى مقتل الشاعر اختلفت في تحديد زمان ومكان القود منه، فبينما نجد أن أبا الفرج الأصفهاني يذكر أن الحادثة كانت في عهد أبي جعفر المنصور وأن الوالي على مكة كان السري بن عبد الله الهاشمي وأنه نسخ ذلك من كتاب عمرو بن أبي عمرو الشيباني بأثره عن أبيه^(١) إذ به ينقل عن ابن الكلبي أن الحادثة كانت في عهد إبراهيم بن هشام المخزومي، ومن ثم فإن الرواية تقرر أنه قتل في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان. وإذ به يعود وينسخ من كتاب للنضر بن حديد يقرر فيه أنه قتل في عهد المنصور وأن الوالي على مكة كان السري بن عبد الله الهاشمي. وبعد نقل صاحب الأغاني لهذه الروايات نجد التبريزي في شرحه على حماسة أبي تمام يقرر وبدون تردد أن القتل كان على عهد الوالي إبراهيم بن هشام المخزومي^(٢). ويبقى بعد ذلك أن نقف عاجزين عن تحديد السنة التي قتل فيها الشاعر، فلم يذكر أحد ممن ترجموا له تحديداً لهذه السنة، وقد حزن عليه أبوه حزناً شديداً بل نجران كلها بكت مقتله^(٣).

وقد وصف أبو الفرج جعفر بن علبة بأنه شاعر مقل غزل فارس مذكور في قومه. وهذه الصفات في الواقع تنطبق على الشاعر فأما كونه غزلاً فله أبيات في غاية الجودة وحادثة مقتله ربما أفصحت عن هذه الصفة؛ وأما كونه فارساً مذكوراً في قومه فيظهر ذلك من خلال شعره وتبقى صفة القلة في شعره فهذا ما لا نستطيع أن نثبت أو ننفيه، لأن ما بين أيدينا من شعره قليل، وشعر أهل السراة وبلاد اليمن في هذه المدة قد أصيب بالإهمال وعدم التسجيل.

وعلى كل حال فإن شعر جعفر - كما يبدو لنا - ينقسم إلى قسمين : قسم غزلي وآخر حماسي. وقد تميز شعر الغزل برقة الألفاظ وسهولتها كما تلمس فيه حرارة العاطفة. ولعل ما يمثل هذه السمات قوله :

(١) الأصفهاني، الأغاني، ١٣: ٤٩ وما بعدها علام " جعفر بن علبة الحارثي " ٣٤٦ وما بعدها. وانظر: " كتاب أسماء المفتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، لمحمد بن حبيب، ضمن نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م) ، ٢: ٢٠٧ ،

(٢) انظر: شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي (بيروت: عالم الكتب، دت) ، ١: ٤٦؛ وانظر: علام، " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٢٥٢ وما بعدها .

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ١٣: ٤٦؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي، ٣٥٥-٣٥٦ .

أشارت لنا بالكف وهي حزينة
وما أنس ما لأشياء لا أنس قولها
أما من فراقي اليوم بدّ ولا النوى
فلو كنت أبكي من فراق صباة
ولكن لي عينا كتوما بمائها
تودعنا إذ لم يودع سلامها
وقد زل عن غر الثنايا لثامها
بمجمع إلا الشحط لمامها
لأذريت عيني دمعة لا ألامها
جموداً بماء الناظرين انسجامها

وشعر الحماسة، فهو يمتاز بقوة الألفاظ، وجزالة الأسلوب وجودة المعنى، كما في قوله:

ولا يكشف الغمء إلا ابن حُرّة
تقاسمها أسيفنا شر قسمة
يرى غمرات الموت ثم يزورها
ففيها غواشيها وفيهم صدورها^(١)

٤ - العجير السلولي^(٢): شاعر عاش في بلاد السراة خلال العصر الأموي، وله قصة مع الخليفة هشام بن عبد الملك، فتذكر المصادر الأولية أنه كان في بيشة مكان يسمى (المعمل) وهو قرية من أعمال مكة في أرض السراة لبني هاشم، وكان أول أمر (المعمل) أنه كان بين سلول وختعم، فيحضر السلوليون به ويضعون فسيل النخل فيأتي الخثعميون وينزعون الفسيل ويهدمون ما حفر السلوليون، ثم يفعل الخثعميون مثلما يفعل السلوليون، ولا يزال بينهم قتال وحروب دائمة حتى صار يطلق على ذلك المكان اسم " مطلوب " وعندما رأى ذلك العجير شاعر بني سلول تخوف أن يقع بين الناس شر أخطر من ذلك فأخذ من هذا المكان طينا وماء عذبا وذهب به إلى الشام ليعرضه على الخليفة هشام بن عبد الملك، ويخبره ما يدور في ذلك المكان من حروب ونزاعات، وعندما قابل الخليفة وأخبره، قال هشام بن عبد الملك : كم بين الشمس وهذا الماء ؟ فقال : أبعد ما يكون بعده. قال : ما بين الطين ؟ قال : في الماء ثم أخبر العجير الخليفة بما في بيشة من أودية ومياه عذبة، كما أخبره بجودة وخصوبة أرض بيشة، فأرسل الخليفة إلى أمير مكة المكرمة وأمره أن يشتري مائتي زنجي ويجعل مع كل رجل امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب في بيشة للزراعة به، فلما رأى الناس ذلك قالوا إن مطلوبا معمل يعمل فيه فذهب اسمه المعمل إلى يومنا الحالي^(٣). وقال العجير السلولي :

(١) الأعلام (جعفر بن علبه الحارثي) ، ٤١٨ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الشاعر العجير السلولي، انظر: محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، قراءة وشرح محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، دت) ، ٢: ٥٨٣، ٥٩٣، ٦١٥، ٦٢٥. وهناك روايات تقول: إن العجير السلولي عاش في عصر الخليفة عبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك لمزيد من التفاصيل عن أخبار هذا الشاعر ونسبه، انظر: الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٢: ٦٤-٨٤ .

(٣) الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٢: ٧٤ وما بعدها.

لا نوم للعين إلا وهي ساهرة
 إن تشتموني فقد بركت أيكتم
 حتى أصيب بغيظ أهل مطلوب
 زرق الدجاج وتجفاف اليعاقب
 بنو أمية وعدا غير مكذوب

سادساً : خلاصة القول :

دراسة بلاد السراة وتبعيتها سياسياً وإدارياً في العصر الأموي، وأوضاعها الاجتماعية مثل : مواطن القبائل، ونظام الموائد، وطرق الطهي، وأسماء الأطعمة، كما أشار البحث أيضاً إلى المراكز التجارية وأثرها الحضاري، والأزدهار الثقافى الناجم عن توسط السروات بين مركزين هامين: اليمن والحجاز. وما أشرنا إليه في هذه الدراسة، قد يفتح الآفاق لبعض الباحثين، وبخاصة من أهل السراة أنفسهم، لأنهم أدري بمواطنهم من غيرهم فيضيفون بالتحليل أو النقد أو التصحيح لكل ما تم إيراد. والشيء الذي يجب معرفته أن بلاد السراة وما جاورها ما زالت بحاجة إلى دراسات علمية أثرية جادة، وذلك لا يتم إلا بتضافر الجهود بين الجهات الرسمية الحكومية، والجامعات، والمراكز البحثية، بالإضافة إلى توفر الدعمين السياسى والإدارى وكذلك المالى كي نصل إلى نتائج طيبة وإيجابية بإذن الله تعالى^(١). والله من وراء القصد.

(١) أحدث ومازلت أنادي الباحثات والباحثين الجادين على خدمة تاريخ وتراث وآثار وحضارة بلدان تهامة والسراة منذ عصور ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر.

رابعاً : لمحات من صلوات تهامة والسراة مع بلاد اليمن والحجاز عبر أطوار التاريخ الإسلامي. (ق١- ق١٥هـ/ ق٧- ق٢١م)^(١) :

م	الموضوع	الصفحة
أولاً :	لمحة من الصلوات السياسية (ق١- ق١٠هـ / ق٧- ق١٦م)	١٤١
ثانياً :	شذرات من الصلوات السياسية (ق١١- ق١٥هـ / ق١٧- ق٢١م).	١٤٨
ثالثاً :	صور من العلاقات الحضارية (ق١- ق١٥هـ/ ق٧- ق٢١م)	١٥٥

أولاً : لمحة من الصلوات السياسية (ق١- ق١٠هـ / ق٧- ق١٦م) :

الناظر في جغرافية السروات وتهامة الممتدة من جنوب مكة المكرمة والطائف إلى جازان ونجران يجد أنها بلاد واسعة، متنوعة التضاريس والموارد الطبيعية، وذات كثافة سكانية عالية منذ العصر القديم وخلال العصور الإسلامية المختلفة^(٢). يجدها من الشمال بلاد الحجاز، ومن الجنوب أراضي اليمن التهامة والسروية، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق صحاري نجد، وأجزاء من وسط وشرق شبه الجزيرة العربية .

والدارس للتاريخ العربي والإسلامي قبل الإسلام وبعده. يجد أن اليمن واليمنيين على صلوات سياسية وحضارية بالحجاز منذ العهد القديم وخلال القرون الإسلامية المختلفة، وكانت بلدان السروات وتهامة هي الرابط الطبيعي الوحيد الذي يصل بين الحجاز واليمن. ومن يقرأ عن تجارة الحجاز قبل الإسلام وبخاصة القرشيين يجدهم في اتصال دائم مع اليمنيين. كما أن الحكومات السياسية في اليمن قبل الإسلام كانت أحياناً تسعى إلى مد نفوذها على بلاد السروات وتهامة حتى حواضر الحجاز الرئيسية^(٣).

(١) هذا العنوان موضوع واسع يشير إلى شيء من الصلوات السياسية والحضارية بين تهامة والسراة وبلاد اليمن والحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيط والحديثة والمعاصرة. والهدف من دراسة ونشر هذا الموضوع هو الإشارة إلى أهمية السروات وتهامة وصلاتها مع اليمن والحجاز، فلا نجد بحثاً علمياً جادة حيال هذا الميدان المهم، أمل أن نرى مؤرخين جادين يتولونه بالبحث والتحليل والتوثيق.

(٢) تتنوع تضاريس ومناخ هذه البلاد في جهاتها الشرقية، وقمم جبال السروات، والمنحدرات الغربية، وأراضي تهامة السهلية والساحلية. وهي مستوطنات بشرية منذ العصور الحجرية، وفترات ما قبل الإسلام وبعده. ومعظم سكانها قبائل عربية قحطانية، يخالطهم الكثير من الأفخاذ والعشائر العدنانية.

(٣) هناك عشرات المصادر اللاتينية، والعربية والإسلامية تذكر تفصيلات كثيرة عن تلك العلاقات السياسية والحضارية قبل الإسلام وبعده.

وعند ظهور الإسلام وفي عهدي الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين امتد الإسلام من مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى بلاد السروات وتهامة وعموم بلاد اليمن. وكتب السير والتراث الإسلامي المبكرة أسهبت في الحديث عن تلك الفترة، وصارت بلاد اليمن وعموم السراة وتهامة تابعة للخلافة الإسلامية في المدينة المنورة، ويتولى أمورها ولاية يجري تعيينهم من قبل الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين في المدينة المنورة^(١).

وعند مجيء خلفاء بني أمية، انتقلت الخلافة من الحجاز إلى الشام، وصارت الحجاز واليمن وما بينهما ضمن الولايات التابعة للخلافة الأموية في دمشق. وظهرت العديد من الثورات السياسية المعارضة لبني أمية في شبه الجزيرة العربية وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة وحواضر اليمن الكبرى. لكن الخلفاء الأمويين استطاعوا أن يخمدوها ويقضون عليها. وبقيت بلاد السروات وتهامة في عزلة سياسية وإدارية، يقوم على شؤونها شيوخ القبائل المحلية وأعيانها. والمصادر تذكر صوراً من الحراك السياسي في الطائف ونجران وأجزاء من جازان خلال القرن الهجري الأول، ومعظم السكان في هذه النواحي يسيرون في ركاب الحياة السياسية التي يعيشها أهل الحجاز واليمن^(٢).

أما المناطق الوسطى من جنوبي الطائف ومكة المكرمة إلى شمالي حاضرتي جازان ونجران فلا نجد لها ذكراً كبيراً في كتب التراث الإسلامي، وأعتقد أن أهل هذه البلاد بقوا مشغولين بالعيش في بلادهم وكسب أرزاقهم من ثرواتهم الزراعية والرعية المحلية^(٣).

ومنذ نهاية القرن الثاني إلى العاشر الهجري (الثامن إلى السادس عشر الميلادي)، نجد الثقل السياسي للعالم الإسلامي ينتقل ما بين بلاد العراق ومصر، فالخلافة

(١) الكتب الشرعية والتاريخية والطبقات والتراجم واللغة والأدب وغيرها مليئة بالروايات التي تذكر ارتباط اليمن والسروات وتهامة بعاصمة الدولة الإسلامية في الأربعين عاما الأولى من عصر الإسلام.

(٢) كانت هكذا حياة هذه البلاد خلال العصر الأموي، وذلك لقربها من حواضر الحجاز واليمن الرئيسية. وولاية بني أمية في مكة المكرمة أو صنعاء يشرفون على البلاد القريبة من مراكز إماراتهم في السروات مثل الطائف ونجران، وذلك حسب قوة الأمير الذي يتولى حاضرتي صنعاء أو مكة المكرمة، أما البلاد الممتدة من شمال نجران إلى جنوب الطائف، فكان نفوذ ولاية بني أمية عليها سوريا، ويترك الأمر في هذه الأوطان لأعيان وشيوخ القبائل التي تستوطن هذه النواحي.

(٣) عندما نفحص كتب التراث الإسلامي المبكرة لمعرفة أحوال هذه البلاد خلال عصر الخلافة الأموية فلا نجد صورة واضحة لحياة الناس فيها، وإنما هناك شذرات قليلة جدا تذكر الأمكنة والأعلام الذين كانوا يعيشون في أوطانهم، ويتصلون أحيانا بولاية بني أمية في الحجاز أو اليمن، أو يتصلون بالخلفاء الأمويين في الشام.

والخلفاء العباسيون في بغداد منذ القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري، وعاصرهم قوى سياسية إسلامية أخرى قامت في مصر مثل الدولة الفاطمية، والدولتين الأيوبية والملوكية^(١). كما ظهر في شمال إفريقيا وبلاد الأندلس قوى إسلامية أخرى، وفي الجزء الشرقي من العالم الإسلامي ظهر أيضا دويلات إسلامية كثيرة في البلاد الممتدة من العراق إلى الهند والصين وجنوب شرق آسيا^(٢).

إن بلاد اليمن والحجاز وتهامة والسراة من القرن (٢- ١٠هـ/ ق ٨- ١٦م) لم تكن معزولة عن دول الإسلام الكبرى في شرق العالم الإسلامي وغربه، لكن وضعها السياسي تغير عما كان خلال عصر الرسول (ﷺ)، والخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أمية. فتلك الفترة المبكرة كان وضع هذه البلاد مركزيا يدار من المدينة المنورة في الحجاز، أو دمشق في الشام، وبقي الأمر هكذا حتى عصر الخليفة العباسي، هارون الرشيد وابنه الخليفة الأمين (١٧٣- ١٩٨هـ/ ٧٨٩- ٨١٣م)، ثم بدأت الحركات السياسية الانفصالية في اليمن، وكانت الدولة الزيدية (٢٠٣- ٤٠٩هـ/ ٨١٩- ١٠١٩م) بمدينة زيد في تهامة اليمن أول الدويلات التي حصلت على شبه استقلال من الدولة العباسية، ثم تلاها دويلات أخرى كثيرة في تهامة اليمن وسرواتها، وكان من أكثرها اتصالا مع الحجاز والسروات وتهامة، الدولة النجاشية (٤١٢- ٥٥٣هـ/ ١٠٢١- ١١٥٨م)، والدولة الزيدية (٢٨٤- ٣٨٢هـ/ ٨٩٧- ١٩٦٢م)، والدولة الصليحية (٤٢٩- ٥٣٢هـ/ ١٠٣٧- ١١٢٨م)، والدولة الرسولية (٦٢٦- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م)^(٣).

بدأت أحوال الحجاز السياسية تضطرب منذ نهاية القرن الثاني الهجري، وضعفت الخلافة العباسية في العراق، وظهرت قوى سياسية في الشام ومصر وغيرها

(١) مصادر التاريخ الإسلامي المبكرة فصلت الحديث عن هذه الحكومات الإسلامية، وهناك مئات الدراسات الحديثة التي شرحت وفصلت الكثير من تاريخ وحضارات هذه الأمم، ونفوذها في مراكزها الرئيسية وفي الأمصار الإسلامية الأخرى مثل حواضر شبه الجزيرة العربية وغيرها في العالم الإسلامي آنذاك.

(٢) هناك مئات المصادر والمراجع والبحوث التي درست هذه الدويلات والأمم الإسلامية في غرب العالم الإسلامي وشرقه منذ القرن (٢- ١٠هـ/ ق ٨- ١٦م). ولن أخوض هنا في الحديث عن هذه البلاد وما ظهر فيها من نشاطات سياسية وحضارية، لأن هذا الأمر خارج إطار ما نرغب الإشارة إليه في بلاد الحجاز واليمن وما بينهما.

(٣) ظهر في اليمن دويلات أخرى عديدة غير هذه الدول الآتف ذكرها، وكانت الخلافة العباسية، والدول الفاطمية، والأيوبية، والملوكية تبذل قصارى جهودها للسيطرة على بلاد اليمن، لكن بعد المسافة بين اليمن ومراكز تلك الدول الرئيسية، وأيضا اضطراب أوضاع اليمن السياسية، حالت دون السيطرة على اليمن، مع أن الدولة الأيوبية ودولة المماليك مدت نفوذها إلى أجزاء من سروات وتهامة اليمن، لكنها في النهاية تركت حكمه لأهله وعادت إلى أماكنها الرئيسية في مصر والشام.

مناوئة للعباسيين، وجميعها تسعى إلى مد نفوذها على الحرمين. ومنذ القرنين (٣-٤هـ/٩-١٠م) صارت بعض أسر الأشراف في مكة المكرمة والمدينة تتولى إدارة أوضاع مدن الحجاز الرئيسية مع استمداد نفوذها وتبعيتها من قوى سياسية إسلامية كبيرة في العراق أو مصر^(١)، وكان العباسيون، ثم الفاطميون، والأيوبيون والمماليك هم الذين يباشرون إشرافهم على بلاد الحرمين عن طريق الأمراء الأشراف في الحجاز. وكانت الدويلات المستقلة في اليمن في حروب مستمرة للسيطرة على بلاد اليمن، وهي في خلافات مع بعضها البعض من أجل مد نفوذها وتوسعها. ولم تكن تلك الدول تحتكم لمعتقدات وأفكار موحدة، فمنها الدول السنية، وأخرى زيدية، أو إسماعيلية أو غيرها، وهذا مما جعلهم لا يهدأون من الحروب والصراعات التي أهدرت الكثير من ثروات ومقدرات أراضي اليمن التهامية والسروية^(٢).

وهناك مصادر مبكرة ومراجع حديثة ذكرت صلات هذه الدويلات اليمنية مع أراضي السروات وتهامة، ونواحي جازان (المخلاف السليماني) ونجران من أكثر المناطق التي عانت من حروب وأطماع تلك الدويلات. فالدولة الزيدية، والنجاحية والرسولية مدت نفوذها إلى جازان وسيطرت عليه في فترات متقطعة، وبعض من هذه الدويلات كالدولة الرسولية امتدت سيطرتها إلى بلاد البرك وحلي، وبعض مدن الحجاز الكبرى مثل مكة المكرمة وما جاورها^(٣).

حكمت الدولة الزيدية والإمامية صعدة وصنعاء، وأجزاء كثيرة من سرورات اليمن أكثر من عشرة قرون^(٤). وكانت تبذل قصارى جهودها للسيطرة على بلاد نجران، ونجح بعض أئمة الزيدية في تحقيق ذلك، لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار في حكم الأراضي النجرانية، لأن أهل نجران يسعون إلى طردهم وإعادةتهم إلى مراكزهم

(١) كان أمراء الحجاز الأشراف يتبعون لبعض القوى السياسية في العراق أو الشام ومصر، ويحظون بالتأييد والدعم والتعيين على إمارتي مكة المكرمة والمدينة المنورة من تلك القوى الإسلامية الخارجية.

(٢) من رغب في الاطلاع على تاريخ الدويلات المستقلة في اليمن من القرن (٢٠٠٢هـ/١٦٨٨م) فليطلع على عشرات المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي فصلت الحديث عن كل دويلة في اليمن منذ ظهورها حتى سقوطها. وهناك دراسات أخرى تركز على الحياة الفكرية والعقدية لكل دويلة يمنية منذ القرن الثالث إلى العاشر الهجري.

(٣) حيناً أن نرى طالب دراسات عليا يقوم بدراسة الدولة الرسولية وسيطرتها على أجزاء من السروات وتهامة، وهذا موضوع لم يدرس ويحتاج إلى جهود كبيرة حتى يخرج في بحث علمي رصين.

(٤) ظهرت الدولة الزيدية في صعدة عام (٢٨٤هـ/٨٩٧م)، وبقيت تحكم اليمن حتى عام (١٢٨٢هـ/١٩٦٢م) ثم تحولت إلى جمهورية. والحوثيون اليوم هم من سلالة الدولة الزيدية، لكنهم غالوا في معتقداتهم عندما حالفوا وانضموا مع مذهب الشيعة الاثني عشرية في إيران. ويعد المذهب الزيدي المعتدل من أقرب المذاهب إلى أهل السنة والجماعة.

الرئيسية في صعدة وصنعاء. والمصادر اليمنية وبخاصة الزيدية، فصلت الحديث عن تلك الحروب والصراعات بين الطرفين، والكثير من هذه المصادر ذكرت الآثار السلبية لتلك الصراعات على الأرض والناس في نجران واليمن. وهناك الكثير من كتب الأدب التي اشتملت على قصائد مطولة عن تلك الحروب، وبعض سير الأئمة مليئة بإحداث تلك الحروب الزيدية النجرانية^(١).

والدولة الصليحية، دولة إسماعيلية، حكمت بلاد اليمن، وكانت في حروب مستمرة مع الدولة الزيدية، ومع قوى ودويلات أخرى في اليمن، ومدت نفوذها إلى أجزاء من بلاد نجران وجزان، وسيطرت على بعض بلدان الحجاز لفترة من الزمن^(٢).

واستمر أشرف مكة المكرمة يحكمون الحجاز، ويوالون القوى الإسلامية الكبرى في الشام والعراق ومصر. والمتأمل في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت حكمهم من القرن (٤-١٠هـ/١٠-١٦م) يجد أوضاع الحجاز مضطربة بسبب الصراعات الأهلية بين الأشراف أنفسهم، وأطماع بعض القوى السياسية في اليمن، أو حواضر الإسلام الكبرى في العراق ومصر والسعي إلى مد نفوذها على بلاد الحرمين^(٣).

كما أشرت إلى أن بعض القوى السياسية في اليمن كانت تسعى إلى مد نفوذها على الحرمين، كالصليحيين، والرسوليين. وأيضاً بعض القوى السياسية التي جاءت من الشام ومصر والعراق إلى الحجاز تسعى هي الأخرى إلى السيطرة على بلاد اليمن، وهذا ما حدث مع الدولة الفاطمية، والدولتين الأيوبيه والمملوكية^(٤). وينضم الأشراف

(١) انظر الكثير من المصادر الزيدية وبخاصة سير بعض الأئمة الزيدية في القرون الإسلامية الوسيطة فهي مليئة بالكثير من التفصيلات النثرية والشعرية التي تعكس أحداث تلك الصراعات الدامية بين النجرانيين والزيديين. ونلاحظ أن أهل نجران أنفسهم كانوا غير متحدين في الدفاع عن أرضهم، فهناك من يوالي الأئمة الزيدية ويساعدونهم على دخول نجران، وآخرون يعارضونهم ويدافعون عن بلادهم.

(٢) انتشر المذهب الإسماعيلي في اليمن منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وجاء الصليحيون في القرنين (٥-٦هـ/١١-١٢م) فأعادوا نشره وهيمته على أجزاء كثيرة من اليمن، وحالوا مد نفوذهم ونشر مذهبهم في نجران، وجزان، وأجزاء من السروات وتهامة وبعض بلدان الحجاز، لكنهم لم يمتكثروا هناك كثيراً لعدم قبول هذا المذهب ورفضه ومحاربهته.

(٣) إن كتب التاريخ الحولية والموضوعية، ومصادر الحجاز واليمن مليئة بالتفصيلات التي تصور التاريخ السياسي والحضاري في بلاد الحرمين. وكانت حياة الأمن في كثير من الأحيان مفقودة وبخاصة في مواسم الحج عندما يلتقي على أرض المشاعر أكثر من موكب حجيج، وأكثر من قوة سياسية، وهم جميعاً غير متفقين سياسياً فلا يتورعون من الاقتتال والصدام العسكري خلال أشهر الحج.

(٤) تاريخ الدولة الفاطمية، والأيوبيه، والمملوكية في الحجاز واليمن من الموضوعات التي درست في بعض الكتب والرسائل العلمية، لكن آثارها السلبية والإيجابية على سكان شبه الجزيرة العربية لم تدرس، وهذا موضوع جديد في بابه يستحق أن يبسط في أكثر من رسالة وبحث علمي.

في مكة والمدينة في معظم الأوقات إلى الأقوى من القوى السياسية التي قدمت من خارج شبه الجزيرة العربية وأصبحت صاحبة النفوذ والقوة في الحجاز واليمن وغيرها من بلدان شبه الجزيرة العربية^(١). وهكذا كان وضع اليمن والحجاز السياسي خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، فكيف كانت الحالة السياسية في بلاد السروات وتهامة في الوقت نفسه؟ واذكر في النقاط الآتية شيئاً من ذلك.

١. بقيت معظم السروات وتهامة خلال العصر الإسلامي الوسيط تحت نفوذ شيوخ وأعيان قبائلها، وإذا كانت بعض المناطق القريبة من الحجاز كالمناطق أو اليمن كجازان (المخلاف السليماني) ونجران تنخرط أحياناً في صراعات حربية مع القوى السياسية الكبرى في اليمن والحجاز فذلك وضع غير دائم، وأحياناً تدخل هذه الأوطان تحت نفوذ تلك القوى لبعض الوقت، ثم تتمرد عليها وتخرج عن سيطرتها.

٢. ظهر في بلاد جازان إمارات محلية من أرومة الأشراف، وكانوا في حروب أهلية مستمرة، ويسخرون القبائل المحلية في تلك الحروب، وأحياناً يستعينون ببعض القوى السياسية الأخرى في الحجاز أو اليمن مثل الدويلات الزيدية، والصلحية، والرسولية. وقبيلة يام في نجران كانت لا تتورع أن تنخرط في تلك الأحداث السياسية والحربية التي تظهر في المخلاف السليماني من وقت لآخر، وربما شاركت مع جيوش الدولة الزيدية ضد أهل جازان، أو اصطفت مع الإمارات المحلية في جازان ضد تلك القوى اليمينية التي تسعى إلى السيطرة على أرض المخلاف السليماني^(٢).

٣. كان الأمراء الأشراف في الحجاز على علاقات مستمرة مع الأجزاء الشمالية من بلاد السروات وتهامة، فالكثير منهم يمتلكون العقارات والمزارع في الطائف، وتربة، ورنية، وبيشة، وفي سروات بلاد غامد، وبعض الأجزاء

(١) المصدر نفسه. التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي والفكري والتعليمي في الحجاز واليمن تحت سيطرة هذه القوى الوافدة من خارج شبه الجزيرة العربية موضوعات مازالت تستحق الدراسة والتوثيق في عدد من البحوث العلمية.

(٢) المصادر والمراجع اليمينية والحجازية تحتوي على معلومات جيدة عن أطماع بعض دويلات اليمن في جازان ونجران، أو الصراعات التي كانت تحدث أحياناً بين الإمارات المحلية في المخلاف السليماني مع الدولة الزيدية أو أهل نجران. وهذا الموضوع مازال بحاجة إلى دراسة أكاديمية عميقة. أرجو أن نرى إحدى طالبات أو طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بجامعة الملك خالد، أو نجران، أو جازان فيتخذ موضوعاً لرسالة ماجستير أو دكتوراه.

السهلية والساحلية التهامية في الليث، وواديا قنونا وبيبه، وقلوة، والمخواة في تهامة زهران وغامد، ووادي حلي، وبلاد اليرك^(١).

ونجد بعض أمراء مكة يخرجون من مكة إلى حلي، والبرك، وجازان بهدف السيطرة عليها أو ضمها تحت نفوذهم، ونجح بعضهم في تحقيق ذلك خلال القرون الإسلامية الوسيطة^(٢). كما لا يتورع بعض الأشراف في طلب العون من بعض قبائل السراة وتهامة ضد إخوانهم وأقاربهم من أمراء مكة، بهدف الاستيلاء على الإمارة في مكة، أو استرداد بعض النفوذ الذي سلب منه^(٣). ووجدت في المصادر الحجازية الكثير من الروايات التي تذكر بعض قبائل جنوب الطائف ومكة، أو بعض شيوخ وأعيان الديار السروية والتهامية الذين لعبوا دوراً محورياً في عدد من الصراعات الأهلية التي وقعت بين الأمراء الأشراف في مكة المكرمة وما جاورها^(٤).

٤. إذا تأملنا في صلوات جنوب تهامة والسراة مع أهل مكة، وأقصد بذلك البلاد الممتدة من سروات غامد إلى قحطان، ومن سهول وسواحل القنفذة، والبرك وبارق إلى الدرب وبيش. فلا نجد تفصيلات كثيرة عن تلك العلاقات السياسية والحربية. وأعتقد أن سكان هذه البلاد كانوا مشغولين بأعمالهم

(١) كل هذه الأمكنة في بلاد السروات وتهامة تقع إلى الجنوب من الطائف ومكة، وهي مواطن ذات حضارة قديمة تعود إلى عصور ما قبل الإسلام. كما أنها مأهولة بالسكان خلال العصور الإسلامية المختلفة. كانت على صلوات جيدة مع بلاد الحجاز، وبعض أهل الحجاز أنفسهم يترددون عليها طوال أيام السنة. وإذا توقفنا مع صلوات الطائف ببلاد الحرمين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) فهي مصيف أهل الحجاز من الأمراء، والوجهاء، والأعيان. بل إن الخلفاء والوزراء في دول بني أمية وبني العباس وغيرهم من الدوليات في الشام ومصر والعراق وما جاورها كانوا يترددون على الطائف، ويمتلكون فيها المزارع والحدائق، وبعضهم يقيم فيها لبعض الوقت، وآخرون يعيشون فيها طوال حياتهم. وأقول عنوان الصلوات بين الطائف ومكة المكرمة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيط موضوع جديد يستحق أن يدرس في هيئة كتاب أو رسالة علمية.

(٢) جرى حروب عديدة بين أشراف مكة وأمراء حلي بن يعقوب أو جازان بهدف سيطرة أشراف مكة على تلك النواحي، أو تأديب أمراء تلك النواحي لتصرفات سلبية صدرت منهم تجاه الأمراء المكيين.

(٣) من يطالع المصادر الحجازية وبخاصة المكية من القرن الثالث إلى العاشر الهجري يجدها تحتوي على روايات عديدة تذكر دور بعض شيوخ أو قبائل تهامة والسراة في مناصرة أشراف مكة، وتأييد فريق على آخر. بل إن بعض أشراف الحجاز كانوا يتركون مكة المكرمة والمدينة المنورة ويذهبون إلى بيشة، أو تربة، أو رنية، أو سروات وتهامة غامد وزهران فيقيمون بها ويعيشون بقية حياتهم هناك. والذاهب في أجزاء من السروات وتهامة اليوم يجد بعض البيوت والأسر القرشية أو الهاشمية. التي مازالت تعيش في هذه البلاد حتى اليوم.

(٤) حبذا أن نرى باحثاً جاداً يجمع مادة ذلك التعاون والصلوات بين المكيين وأهل السراة وتهامة منذ القرن (٤٠٤هـ/١٦١٠م). ومن يعكف على دراسة هذا الموضوع فإنه يقدم لنا معاشر الباحثين دراسة قيمة في عنوانها ومحتواها.

المحلية، وربما كان فيهم شيوخ وأعيان على علاقات بالأحداث السياسية في الحجاز واليمن، لكنهم كانوا جميعاً يفتقدون إلى الأمن المحلي، لعدم وجود سلطة مركزية تشرف على بلادهم وتسوسها سياسياً وإدارياً. والقبائل نفسها في عموم تهامة والسروات منذ القرن (٢هـ/٨م) إلى العصر الحديث كانت صاحبة الحل والعقد والهيمنة على أوطانها. وكانت ظاهرة التحالف القبلي سارية المفعول في أنحاء هذه البلاد من أجل توفير الأمن للبلاد والعباد^(١).

٥. من يتجول في أرجاء السروات وتهامة يجد الكثير من النقوش والآثار التي تعكس بعض الأحداث السياسية والحضارية التي عاشها سكان هذه البلاد خلال القرون الإسلامية الوسيطة. ومن أكثر المصادر التي شاهدها الكتابات على بعض القبور، والقصور، والصخور المتناثرة في أنحاء البلاد. أمل أن تقوم الجامعات المحلية في بلاد السروات وتهامة بدعم وتشجيع من يدرسها وينشرها، وإن فعلت ذلك فسوف تطلعنا على ثروة علمية يصعب أن نجدها في المصادر التقليدية. ومما اطلعت عليه أسماء أعلام ينتسبون إلى أسر وعشائر في بلاد الحجاز، وقد مكثوا ردها من الزمن في السروات وتهامة، وبعضهم عاشوا وماتوا في هذه الأوطان^(٢).

ثانياً: شذرات من الصلات السياسية (ق ١١هـ/ق ١٧هـ/ق ٢١م).

سقطت الدولة المملوكية خلال القرن (١٠هـ/١٦م) وحلت محلها الدولة العثمانية التي مدت نفوذها على مصر والشام، وشبه الجزيرة العربية، وصارت هذه الإمبراطورية الجديدة (بنوعثمان) هم المسؤولون عن بلاد الحرمين. واستمر الأمراء الأشراف هم أمراء الحجاز يستمدون القرارات والأوامر من السلطان العثماني أو من ينوب عنه في الأستانة أو مصر^(٣).

(١) لا نجد مصادر تذكر ذلك بشكل واضح، وإنما هناك إشارات قليلة تؤكد ما ذكرنا خلال العصر الإسلامي الوسيط. وفي العصر الحديث هناك الكثير من الوثائق التي تعكس حياة الحروب والفضوى التي كانت تعيشها جميع عشائر وقبائل السروات وتهامة. وتشير أيضاً إلى عقود واتفاقيات تحالف بين تلك العشائر والقبائل.

(٢) وقضت على كتابات صخرية ومقابر في سروات منطقتي الباحة وعسير، وبعض الأماكن الأثرية في محافظات القنفذة، والبرك، والمخوة، وبيشة، وبلجرشي، وفي سروات بلاد الحجاز، ومنها أسماء أعلام وأسرة مكية أو من الطائف جاءوا إلى هذه الأوطان واستقروا وماتوا فيها ومازال لهم عقب في هذه البلاد حتى الآن حبذا أن نرى من يجمع هذه الآثار والكتابات، ثم يدرسها وينشرها كي يستفيد منها الباحثين وطالبات وطلاب العلم.

(٣) صارت حكومات مصر هي المسؤولة عن بلاد الحرمين منذ ظهور الدولة الفاطمية، ومن بعدهم سلاطين بني أيوب والمماليك حتى جاءت الدولة العثمانية وقضت على المماليك، وجعلت مصر قاعدة سياسية وإدارية تراجع السلطان العثماني وتشرف على أوضاع الحجاز وغيرها. وهناك الكثير من الكتب والبحوث التي درست أهمية مصر السياسية والإدارية في الإشراف على بلاد الحرمين منذ القرون الإسلامية الوسيطة حتى العصر الحديث.

استمرت الدولة العثمانية تسيطر على أجزاء عديدة في شبه الجزيرة العربية وبخاصة بلاد الحجاز واليمن. وكانت إمارة الأشرف في مكة والدولة الزيدية في اليمن تدخل أحياناً في صراعات مع النفوذ العثماني في بلادهم، لكن تفوق جيوش الدولة العثمانية في العدد والعدة استطاعت على إخضاع هذه البلاد لنفوذها وسيطرتها^(١).

ظهرت الدولة السعودية الأولى في الدرعية وسط نجد في منتصف القرن (١٢هـ/١٨م)، ومدت نفوذها على عموم شبه الجزيرة العربية. وهذا مما جعل الدولة العثمانية تتصدى لها وتقضي عليها، وتخرب عاصمتها عام (١٢٣٤هـ / ١٨١٩م)^(٢). وكان حاكم مصر للعثمانيين، محمد علي باشا هو وابنيه (إبراهيم وطوسون) من شن حملات متتالية على أئمة الدولة السعودية الأولى، حتى قضوا على دولتهم في ثلاثينيات القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)^(٣).

وإذا كانت الدولة الزيدية في اليمن وقوى سياسية أخرى تصدت للعثمانيين عندما وصلوا بلادهم، إلا أن دولة بني عثمان كانت أقوى من تلك الحكومات المحلية، واستطاعت أن تسيطر على الكثير من أراضيهم السروية والتهامية^(٤). كما عاد السعوديون مرة ثانية في القرن (١٣هـ/١٩م)، وقامت الدولة السعودية الثانية (١٢٤٠-١٣٠٩هـ/١٨٢٤-١٨٩١م)، لكنها كانت محدودة النفوذ على بلاد نجد وما جاورها، ولم تعمر طويلاً حتى سقطت مرة ثانية^(٥). واستمر العثمانيون يسيطرون على أجزاء عديدة في شبه الجزيرة العربية

(١) انظر دراسات عديدة عن تاريخ الدولة الزيدية في اليمن والأمراء الأشرف وصلاتهم مع الدولة العثمانية في شبه الجزيرة خلال القرنين (١١-١٢هـ/١٨١٧م). وما زالت هذه الموضوعات تستحق مزيداً من الدراسات العلمية، وهناك الكثير من الوثائق الجديدة التي تصب في خدمة هذا الجانب.

(٢) للمزيد عن تاريخ تأسيس وتوسع الدولة السعودية الأولى (١١٥٧-١٢٣٤م/١٧٤٤-١٨١٨م) انظر العديد من المصادر والمراجع العربية والأجنبية المطبوعة والمنشورة التي فصلت الحديث عن تاريخ وحضارة هذه الدولة.

(٣) بدأ محمد علي باشا جندياً في الدولة العثمانية، وجاء إلى مصر مع جيوش بني عثمان، ثم تدرج في رتبة العسكرية حتى صار حاكماً لمصر. وعمل جاهداً على بناء مصر وتطويرها، ثم سعى للاستقلال عن الدولة العثمانية وحاربها وتصدى لها، وجرى بينهم حروب عديدة، ومد نفوذه على أجزاء من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، والدولة العثمانية لم تكن راضية عن توسعه ومد نفوذه على أجزاء من إمبراطوريتها، فاستعانت عليه ببعض الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا، وتدخلت لصالح العثمانيين، لخوفهم من هذه القوة الجديدة المتمثلة في حكومة محمد علي باشا، وعقدت مؤتمر لندن عام (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) الذي فرض على محمد علي الانسحاب من الشام وشبه الجزيرة العربية، ويبقى حاكماً لمصر، ويكون تابعاً للسلطنة العثمانية فيدفع الجزية السنوية، ويبقى جيشه جزءاً من الجيش العثماني. هناك عشرات الدراسات العربية والأجنبية التي درست حكومة محمد علي باشا وحروبها مع العثمانيين والسعوديين وغيرهم.

(٤) هناك كتب وبحوث عديدة مطبوعة ومنشورة عن صراعات الدولة العثمانية مع الدولة الزيدية وقوى سياسية أخرى في اليمن خلال العصر الحديث (١٢-١٤هـ/١٨-٢٠م)، وما زال هناك جوانب لم تدرس، ووثائق وسجلات تاريخية جديدة لم تنشر.

(٥) نجد الكثير من البحوث العلمية المطبوعة والمنشورة ورقياً وإلكترونياً عن بداية الدولة السعودية الثانية، وأحداثها، وسقوطها. وهناك موضوعات حضارية عن هذه الدولة ما زالت تستحق البحث والدراسة والتوثيق.

وبخاصة بلاد اليمن والحجاز حتى قيام الحرب العالمية الأولى (١٣٢٢-١٣٣٧هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م)^(١).

وعادت الدولة السعودية الثالثة على يد مؤسسها الإمام عبدالعزیز بن عبدالرحمن الفيصل في نهاية العقد الثاني من القرن (١٤هـ/ ٢٠م)، ومدت نفوذها على معظم شبه الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز وغيرها^(٢)، واستمرت الدولة الزيدية تحكم سروات اليمن وأجزاء من تهامة والسراة حتى عام (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، ثم تحولت إلى حكومة جمهورية، وجرى لها الكثير من التحولات السياسية والعسكرية خلال العصر الحديث والمعاصر^(٣).

ونجد بلدان تهامة والسراة لم تكن غائبة عن أحداث التاريخ الحديث والمعاصر. والمصادر لا تذكر شيئاً كثيراً عنها خلال القرنين (١١-١٢هـ/ ١٧-١٨م) اللهم إلا إشارات طفيفة في المصادر الحجازية واليمينية تذكر شذرات عن أطراف السروات في أقصى الجنوب أو الشمال وصلاتها التاريخية مع القوى السياسية في اليمن والحجاز. مثل المناوشات العسكرية مع الدولة الزيدية وأهل نجران، وهذه مشكلة استمرت بين الطرفين حوالي عشرة قرون^(٤). وأيضاً قبائل سروات الطائف وما والاها، وأجزاء من تهامة القريبة من مكة المكرمة التي شاركت في بعض الاضطرابات السياسية والعسكرية التي حدثت في المشاعر أثناء الحج، وفي بعض الأشهر الحرم^(٥).

(١) تاريخ الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية مازال يستحق تكاتف جهود المؤرخين والباحثين الجادين لدراسة تاريخ هذه الإمبراطورية وصلاتها السلبية والإيجابية مع أرض وسكان شبه الجزيرة العربية. وهناك أيضاً الكثير من الوثائق في أراشيف تركيا ومصر وبريطانيا وغيرها وهي جديدة في مادتها تستحق الدراسة والطباعة والنشر.

(٢) تأسست الدولة السعودية الثالثة عام (١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م)، وفي حوالي ثلاثين عاماً استطاع مؤسسها الإمام عبدالعزیز بن عبدالرحمن تأسيس وتوحيد معظم شبه الجزيرة العربية تحت مظلة حكومة (الملكة العربية السعودية). وهناك مئات الدراسات العربية والأجنبية التي درست ووثقت تاريخ هذه الدولة السعودية الحديثة. وما زالت تستحق الكثير من البحوث النوعية والتحليلية.

(٣) من يتابع الدولة الإمامية الزيدية في اليمن يجد أن أئمتها كتبوا عدداً من السير التي تؤرخ لعهودهم والأحداث التي جرت مع دولتهم على المستويين الداخلي والخارجي. كما أن هناك الكثير من المؤرخين العرب والأجانب كتبوا كثيراً من البحوث والكتب التي ترصد صفحات من تاريخ هذه الدولة التي حكمت جزءاً كبيراً من اليمن حوالي ألف ومئة عام. أما تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (١٣٨٢ - ١٤٤١هـ / ١٩٦٢-٢٠٢٠م) فقد دون في كتب وبحوث كثيرة، وما زال هناك الكثير من الوثائق الجديدة غير المنشورة عن هذه البلاد تستحق الجمع والدراسة والتوثيق.

(٤) الصلات السياسية بين الدولة الزيدية وأهل نجران وما جرى بين الطرفين من حروب من نهاية القرن (٢هـ/ ٩م) إلى العصر الحديث موضوع كبير يستحق أن يدرس في عدد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية.

(٥) بعض الكتب الحجازية من القرن (٧-١٢هـ / ١٤-١٨م) تشير إلى بعض الحروب والاضطرابات التي كانت تجري في المشاعر المقدسة بين قوى سياسية ومواكب حجيج جاءت من اليمن، ومصر، والعراق، والشام وغيرها. وكان أمراء مكة يلعبون أدواراً سلبية وأحياناً إيجابية في تلك الاضطرابات. كما أن القبائل القريبة

وفي عهد الدولة السعودية الأولى ظهرت إمارة المتاحمة في عسير، وكانت امتداداً لتلك الدولة السعودية واستطاع أمراء تلك الإمارة أن يمدوا نفوذهم على أجزاء كبيرة من السروات وتهامة^(١). وفي الوقت نفسه ظهرت إمارة الشريف حمود أبو مسمار في جازان، وكانت في بادئ الأمر تابعة لإمارة المتاحمة، ثم جرى بينهم حروب عديدة لعدم قبول أبو مسمار للإمارة العسيرية^(٢).

واستطاعت إمارة المتاحمة أن ترسخ مبادئ الدعوة السلفية في عموم الأراضي السروية والتهامية، وكانت سندا قويا للدولة السعودية الأولى عندما مدت نفوذها على الحجاز، وجاهدت إلى جانبها في محاربة الدولة العثمانية، وبعض القوى السياسية الأخرى في اليمن. مع أنها لم تطل فترة حكمها، لكنها حمت أرضها وشدت من أزر أهل تهامة والسروات^(٣)، وجاء الأمراء اليزيديون^(٤). ويعرفون بالإمارة العائضية نسبة إلى الأمير عائض بن مرعي^(٥)، وحافظت على سروات وتهامة منطقة عسير، وامتد نفوذها أحيانا إلى الحجاز وجازان وأجزاء من أراضي اليمن التهامية والسروية^(٦). وظهرت دراسات

من مكة المكرمة تساهم أيضاً في تلك الفتن. وغالباً كان الأمن مفقوداً وبخاصة في نهاية عصر الدولة الملوكية، وظهور الدولة العثمانية ومد نفوذها على بلاد الحرمين.

- (١) استمرت إمارة المتاحمة تحكم جزءاً من بلاد تهامة والسراة حوالي سبع عشرة سنة (١٢١٦-١٢٣٣هـ/١٨٠١-١٨١٧م)، ومقرها في بلدة طيب من سروات حاضرة أبها. وقضى عليها من قبل محمد علي باشا عندما جرد جيوشه على الدولة السعودية الأولى ودمر عاصمتها الدرعية.
- (٢) دُرِس تاريخ إمارة المتاحمة في عسير وصلاتها العسكرية مع الإشراف في جازان بقيادة الأمير حمود أبو مسمار في عدد من الكتب والدراسات العلمية، وما زال هناك جزئيات تخص هذه القوة السياسية في السروات وتهامة تستحق أن توثق في بعض البحوث العلمية.
- (٣) تولى إمارة المتاحمة أربعة أمراء هم: (١) محمد بن عامر (١٢١٦-١٢١٨هـ/١٨٠١-١٨٠٣م). (٢) عبد الوهاب بن عامر (١٢١٨-١٢٢٤هـ/١٨٠٣-١٨٠٩م). (٣) ظامي بن شعيب (١٢٢٤-١٢٣٠هـ/١٨٠٩-١٨١٤م). (٤) محمد بن أحمد (١٢٣٠-١٢٣٣هـ/١٨١٤-١٨١٧م). وقد بذلوا جهوداً كبيرة في حماية بلادهم ونشر الدعوة السلفية في أرضهم. مع أن أهل البلاد كانوا وما زالوا أهل عقيدة صافية، فلم يتأثروا بما حولهم من عقائد وبخاصة في اليمن وما جاورها.
- (٤) هكذا يطلق عليهم نسبة إلى بلادهم (آل يزيد)، وهناك من يقول إنهم ينتسبون إلى الخليفة يزيد بن معاوية، ولهذا سموا بهذا الاسم. وقد بحثت كثيراً في مصادر التاريخ الإسلامي المبكرة فلم أجد أي رواية تؤيد هذا القول. والذي ذكر هذه الرواية مراجع حديثة، ولا أدري من أي مصدر أو سند سجلوا أقوالهم وروايتهم.
- (٥) سبق الأمير عائض بن مرعي في إمارة عسير الأميرين سعيد بن مسلط، وعلي بن مجثل اللذين حكما البلاد العسيرية بعد القضاء على إمارة المتاحمة. ثم جاء الأمير عائض بن مرعي (١٢٤٩-١٢٧٢هـ/١٨٣٣-١٨٥٥م)، وهو المؤسس الفعلي للإمارة العائضية التي استمرت فيه وابنه محمد حوالي ثلاثين عاماً (١٢٤٩-١٢٨٩هـ/١٨٣٣-١٨٧٢م). وإمارة آل عائض مازالت تستحق دراسات أكثر وأطول وأعمق.
- (٦) انظر بعض الدراسات المطبوعة والمنشورة في عدد من المكتبات الجامعية في المملكة العربية السعودية، وهي تذكر صفحات من توسع هذه الإمارة نحو اليمن والحجاز. وما زال هناك وثائق كثيرة غير منشورة عن هذه الإمارة ومعظمها في أرشيف الدولة العثمانية في إسطنبول. هذا ما عرفته واطلعت على بعضها في هذا الأرشيف عام (١٤٣٦هـ/٢٠١٥م).

محدودة تشير إلى العديد من الحروب التي خاضتها إمارة آل عائض مع الأشراف والقوى العثمانية في الحجاز، وكيف توسع نفوذها حتى وصلت بلاد زبيد والحديدة في اليمن^(١). ومازال هناك الكثير من الوثائق غير المنشورة في أرشيف الدولة العثمانية ومصر وعند بعض البيوتات العلمية في بلاد جازان، وعسير، والباحة، والحجاز وهي تشير إلى بعض الانتصارات التي حققها الأمير عائض بن مرعي وابنه محمد على الجيوش العثمانية في بلاد الحجر وغامد وزهران، وفي السهول والسواحل التهامية الممتدة من مكة المكرمة إلى القنفذة والبرك ومحائل عسير، ورجال المع، والدر، وبيش وما حولها^(٢).

والمأمل في الكثير من الوثائق التاريخية الحديثة خلال القرن (١٢هـ/١٩م) يجد أن الدولة العثمانية عانت في حروبها مع إمارة آل عائض في عسير. ولهذا قررت أن تقضي عليها كما قضت على الدولة السعودية الأولى عام (١٢٣٢-١٨١٧م)، فجردت لها حملات عسكرية عام (١٢٨٨هـ/١٨٧١م)، وعند وصولها إلى عسير تمكنت من قتل أمير عسير الأمير محمد بن عائض عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م). واستولت على بلاد عسير، وحكمتها حكما عسكريا حوالي (٤٨) سنة (١٢٨٩-١٢٣٧هـ/١٨٧٢-١٩١٨م). وأطلقت عليها اسم (متصرفية عسير)^(٣)، ومقرها مدينة أبها، ويتبعها ستة أفضية كما عرفت أيضا بقائم مقاميات، وهذه الأفضية هي: محائل، ورجال المع، والنماص في بني شهر، وغامد، وصبيا، والقنفذة. ومن خلال هذا التنظيم الإداري الجديد، وجدنا أن معظم بلاد السروات وتهامة أصبحت تابعة لمتصرف عسير. وفي تلك الفترة، كانت الأوضاع السياسية والإدارية في هذه البلاد على النحو الآتي:

١. اتخذت المتصرفية مدينة أبها مقرا لإدارتها الرئيسية لعموم البلاد السروية والتهامية. والقائم مقام في كل قضاء يستمد قراراته من المتصرف. وكان نفوذ المتصرف وقائمي المقاميات محدودا جدا فهم لا يشرفون إلا على أماكن إقامتهم، وباقي البلاد تحت تصرف القبائل وشيوخها. والحرب سجلال بين الجيوش العثمانية والقبائل السروية والتهامية التي لا ترضى الخضوع للعثمانيين.

(١) المصدر نفسه.

(٢) أرجو من طالباتنا وطلابنا في برامج الدراسات العليا بقسم التاريخ في جامعة الملك خالد أن يعتنوا بتاريخ أوطانهم فيجمعوا مادتها ويدرسونها دراسات علمية موثقة. وإمارة آل عائض في عسير وما حدث في عصرها من منجزات تاريخية وحضارية تستحق أن يلتفت لها وتدرس في هيئة كتب وبحوث علمية موثقة. وهناك بلدان عديدة في السروات وتهامة مثل: محائل عسير، ورجال المع، وبيش، والدر، وصبيا، وأبو عريش وغيرها تستحق أن تدرس في بحوث مستقلة، وهي جديرة بذلك.

(٣) عرفت المتصرفية أيضا باسم (لواء). وكانت اليمن ولاية من ولايات الدولة وكان لواء عسير تابعا للولاية اليمنية، بالإضافة إلى ثلاثة ألوية أخرى في صنعاء، وتعز، والحديدة. وكان هناك صراع مستمر بين لواء عسير وإدارة الولاية الرئيسية في اليمن، لأن بعض ولاة عسير العثمانيين لا يرغبون مراجعة ولاية اليمن ويفضلون الاتصال مباشرة بالباب العالي.

٢. كان المتصرف في أبها على اتصال دائم بالولايات العثمانية في الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، ومقر السلطنة في الأستانة فهو ينقل لهم كيفية إدارته للبلاد، ويطلب المدد بالرجال والعتاد حتى يتمكن من إخضاع أراضي المتصرفية لتنفيذ الدولة العثمانية .

٣. كان هناك بعض المناوشات بين ولاة الدولة العثمانية في اليمن والحجاز، لاختلاف وجهات النظر، وعدم الاتفاق في إدارة البلاد. ويبدو أن تلك الخلافات لم تكن حديثة العهد، وإنما لها جذور تاريخية لما كان بين تلك البلدان من صراعات واختلافات في العقود والقرون السابقة لعصر المتصرفية العثمانية في عسير^(١).

٤. كان الأمن شبه مفقود في عصر المتصرفية العثمانية، فالقبائل والعشائر في صراعات داخلية دائمة. والعثمانيون أنفسهم لا يتورعون عن محاربة القبائل وفرض الضرائب عليها^(٢). وربما كان هناك بعض الشيوخ والأعيان المستفيدين من حكم الدولة العثمانية لبلادهم، فهم يحصلون على الهبات والهدايا من المتصرف العثماني أو بعض القوى والإدارات العثمانية في عسير، أو الحجاز، أو مصر، أو مقر السلطان في الأستانة^(٣).

٥. لم يتوقف الناس في تهامة والسراوات من الصراعات الداخلية والخارجية منذ إمارة المتاحمة حتى حكم العثمانيين للبلاد في نهاية القرن (١١٣هـ/١٩م)، والعقود الأولى من القرن (١١٤هـ/٢٠م). وكانت نظرة السكان المحليين للعثمانيين على أنهم غزاة جاءوا من خارج شبه الجزيرة العربية لاحتلال بلادهم، فكانوا أشد كراهية لهم، ولم يقبلوهم كالإمارات المحلية السابقة لعصرهم، حيث كان حكامها أكثر قبولا عند عامة الناس^(٤).

(١) كانت بلاد عسير، والإمارات التي قامت فيها قبل المتصرفية العثمانية في حروب دائمة مع حكومات اليمن والحجاز، ومع القوى السياسية القادمة من خارج شبه الجزيرة العربية مثل محمد علي باشا، حاكم مصر، أو القوى العثمانية التي كانت تغزو بلاد عسير، وهي مدعومة من سلاطين الإمبراطورية العثمانية.

(٢) لا تخلو المتصرفية العثمانية في عسير من بعض الإيجابيات الإدارية والحضارية، فقد أنشأوا بعض المؤسسات الإدارية الحديثة، وكانت حياتهم أكثر تنظيماً من الإمارات التي سبقتهم، لكنهم أيضاً يمارسون القوة والجبروت في حكم البلاد، ولا تخلو تصرفاتهم من الجور والظلم للرعية. هذا الذي اطلعت عليه في عدد من الوثائق العثمانية أثناء جباية الزكوات، أو تأديب بعض العشائر الثائرة ضدهم.

(٣) حصلت على وثائق عديدة تذكر أعلام وأعيان من السرويين والتهاميين كانوا على علاقات جيدة مع رجالات الدولة العثمانية في بلادهم. كما كان بعضهم يسافرون إلى اليمن، والحجاز، ومصر، والأستانة في مهمات إدارية وعسكرية، ودبلوماسية. ومنهم من أقام في تلك النواحي، وحصل على الكثير من الهبات، وامتلكوا الدور والعقارات، وعملوا في بعض مؤسسات الإمبراطورية خارج متصرفية عسير. وفي المقابل هناك أسر وأفراد مناوئون لها، وفي حروب دائمة ضدها، وعندما قبضوا عليهم عذبوهم، وصادروا أموالهم، وقتلوا كثيراً منهم.

(٤) هذا الذي عكسته المصادر، وكان الأشراف في الحجاز، والزيدون في اليمن أيضاً مرفوضين عند السرويين والتهاميين، لأنهم قدموا من بلادهم لحكمهم والسيطرة على أوطانهم .

وظهر في بلاد جازان الإمارة الإدريسية خلال عشرينيات القرن (١٤هـ/٢٠م)، ودخلت هذه الإمارات في صراعات وحروب عديدة مع المتصرفية العثمانية في عسير^(١). ومدت نفوذها على أجزاء من تهامة عسير، وحاول السيد الإدريسي الاستيلاء على مدينة أبها والقضاء على المتصرفية العثمانية فيها، لكن الدولة العثمانية أرسلت إمارة الأشراف في مكة المكرمة والقوى العثمانية في الحجاز لإنقاذ المتصرفية من هذه الإمارة الحديثة^(٢).

وأثناء قيام الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢هـ/١٩١٤م)، تراجع نفوذ الدولة العثمانية، وهزمت أمام دول التحالف، وتغيرت خريطة شبه الجزيرة العربية، وبخاصة بعد ظهور الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، الذي عاد من الكويت إلى الرياض عام (١٣١٩هـ/١٩٠٢م) لاسترداد حكم آبائه وأجداده. ودخلت بلاد تهامة والسراة وما جاورها في حقبة تاريخية جديدة، وكان بطلها الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل الذي مد نفوذه عليها، وعلى بلدان عديدة في طول وعرض شبه الجزيرة العربية^(٣).

دخلت بلاد السراة وتهامة والحجاز حتى نفوذ الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل في الفترة من (١٣٣٨-١٣٤٣هـ/١٩١٩-١٩٢٤م) وصارت جزءاً من مملكته، وقابله بعض العقبات مع إمارة الإدريسي في جازان، ومع بلاد نجران، والدولة الزيدية في اليمن، لكنها في نهاية الأمر انتهت بعد اتفاقية الطائف. عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) بين الحكومتين السعودية واليمنية، وصارت منطقتا جازان ونجران جزءاً من المملكة العربية السعودية، ورسمت الحدود بين الدولتين^(٤).

(١) أسس محمد بن أحمد الإدريسي إمارة عرفت بالإمارة الإدريسية في جازان عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، ومد نفوذه إلى الحديدة جنوباً وإلى القنفذة ومحال عسير شمالاً، وكانت عاصمته مدينة صيبا، واتخذ من مدينة جازان ميناء لإمارته، وخاض حروب عديدة مع أشراف مكة، والدولة الزيدية، والدولة العثمانية في جازان وعسير. وصدر عن هذه الإمارة العديد من البحوث والدراسة العلمية، وما زالت تستحق أن تدرس جزئيات من تاريخها الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي والتعليمي.

(٢) لم تعمّر إمارة الأدراسة طويلاً، لكنها كانت على صلات سياسية وعسكرية بالقوى المجاورة لها في اليمن، وعسير، والحجاز. ودخلت في تحالفات مع بعض القوى الغربية التي وصل نفوذها إلى البحر الأحمر مثل حكومتي إيطاليا وإنجلترا. وما زال هناك وثائق محلية وأجنبية عن هذه الإمارة لم تشر، أمل أن نرى باحثاً جاداً يقوم بدراستها وتحليل نصوصها.

(٣) هناك مئات الدراسات العربية والأجنبية التي فصلت الأحداث التاريخية في شبه الجزيرة العربية أثناء قيام الحرب العالمية الأولى، وذكرت الأسباب والأحداث لكثير من القوى السياسية التي تدهورت أو اختفت أو حكومات أخرى ظهرت وتشكلت داخل الجزيرة العربية وخارجها.

(٤) هناك الكثير من البحوث المنشورة باللغة العربية والأجنبية عن اتفاقية الطائف بين الدولتين السعودية

وصارت مناطق نجران، وجازان، وعسير، والباحة، ونواحي القنفذة، والليث، ورنية، وترب، والطائف. وهي ما قصدته في هذه الدراسة بـ (بلاد تهامة والسراة) جزء من الدولة السعودية الحديثة (المملكة العربية السعودية). ودخلت هذه الأوطان مع باقي أجزاء المملكة منظومة النمو والتطور التاريخي والحضاري الذي قام على أسس إدارية وحضارية حديثة، وتحولت حياة أهلها من الفرقة والشتات والصراعات الأهلية، إلى أمة موحدة تخضع للقوانين الشرعية التي فرضتها الدولة على جميع مفاصل الحياة العامة والخاصة^(١).

ثالثاً: صور من العلاقات الحضارية بين تهامة والسراة واليمن والحجاز (ق ١٠٠هـ/ق ٧٠٠م).

إن رصد هذا الموضوع في دراسة علمية موثقة يحتاج إلى عدد من الكتب والبحوث. وهذا ما أرجوه من الباحثين وأساتذة الجامعات المتخصصين في بلدان اليمن، والحجاز، والسروات، وتهامة وغيرها. ومن يعمل على دراسة هذا المجال فإنه يجد صلات تاريخية وحضارية قوية تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، وخلال القرون الإسلامية المبكرة، والوسيط، والحديثة، والمعاصرة. وسوف أدون في الصفحات الآتية نماذجاً من تلك العلاقات التي أأمل أن تفتح أبواباً أوسع لطلاب العلم والمعرفة.

١- الصلات الجغرافية :

من يدرس كتب التراث الإسلامي المبكرة، وبخاصة المؤلفات التي درست علوم الأرض، والأمكنة، والجغرافيا الطبيعية والبشرية فإنه سوف يقرأ معلومات جيدة عن جغرافية شبه الجزيرة العربية، ومعظم هذه المصادر أشارت إلى جبال السراة، أو السروات التي قال بعضهم أنها تمتد من بلاد الشام إلى قعر اليمن، ومنهم من فصل الحديث عن أقسامها، وهيئة تضاريسها، ومواردها الطبيعية. وبعض المؤلفين الأوائل ركزوا حديثهم على السروات التي تخرج من مكة المكرمة والطائف إلى صعدة وصنعاء

واليمينية، وبعض هذه الدراسات ذكرت شيئاً من الحروب التي جرت بين الحكومتين، وكانت بلاد نجران وجازان مسرحاً لبعض تلك الصراعات العسكرية. وما زال هناك وثائق كثيرة غير منشورة لها علاقة بتلك الحروب، نأمل أن نرى باحثين جادين يقومون بجمعها ودراستها وتحليلها.

(١) إن حياة المجتمعات قبل قيام الدولة السعودية الحديثة كانت مضطربة، فالحروب والفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان، والجوع والفقر والجهل مخيم على حياة الناس بجميع شرائحهم. ثم جاءت هذه الدولة العصرية، (المملكة العربية السعودية) فجمعت شتات الناس، وعملت على تطوير الأرض والناس في شتى مناحي الحياة. والذي قام به الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل في توحيد أرجاء المملكة وبناء أرضها وإنسانها يعد من معجزات العصر الحديث، ومن يدرس تدهور أوضاع الناس السياسية والحضارية قبل قيام الحكومة السعودية الحديثة، فإنه يتأكد له صحة ما ذكرت.

وما جاورها، وأكدوا على تشابه تضاريسها وتركيبتها السكانية^(١).

والمصادر المبكرة أشارت أيضاً إلى بلاد تهامة، فذكروا تضاريسها، ومناخها، ومواردها الطبيعية، وهي الأخرى تمتد من مكة المكرمة وما والاها إلى أقصى تهامة اليمن. ويقال أن تهامة بمفهومها الواسع تمتد على طول ساحل البحر الأحمر من خليج العقبة في الشمال إلى عدن في الجنوب^(٢). وتهامة التي أعنيها في هذا المبحث هي الأراضي المحاذية للبحر الأحمر من الشرق، وتمتد من مكة المكرمة إلى جازان بأجزائها الساحلية والسهلية، المحصورة بين جبال السروات من الشرق والبحر الأحمر من الغرب^(٣).

وجاءت المراجع المتأخرة فلم تذهب بعيداً في شروحاتها عن المصادر المبكرة، واكتفت بنقل النصوص القديمة مع التأييد أو الرفض لبعض الروايات التي حددت السروات وتهامة. وهناك من ذكر معظم الروايات المختلفة دون أن يرجح رأي أو قول على آخر. وأنا أتقل في مناكب السروات وتهامة المعنية في هذه الدراسة منذ أربعين عاماً، وشاهدت بعض الأجزاء السروية والتهامية في اليمن والحجاز. ومن ثم خرجت بالعديد من الخلاصات والنتائج، واذكر أهمها في النقاط الآتية:

١. لا أحد يجهل الاختلافات عند المتقدمين في تحديد بلاد السراة وتهامة. ومعظم الرحالة والجغرافيين الأوائل جاءوا من خارج شبه الجزيرة العربية، وشاهدوا أجزاءها الشمالية، وسمعوا عن أجزائها الجنوبية فلم تكن الصورة واضحة لديهم عن التركيبة الجغرافية والبشرية لعموم السروات وتهامة، من أقصى الشمال إلى الجنوب. ولو شاهد أكثرهم السروات وتهامة الممتدة من مكة المكرمة والطائف إلى قعر اليمن لكان لهم أقوال أدق وأوضح في مفهوم السروات وتهامة الحقيقية. وهي من وجهة نظري الأراضي الممتدة من مكة المكرمة والطائف إلى أقصى بلاد اليمن سراة وتهامة. ولا ننكر وجود أوطان تهامية من شمال مكة المكرمة إلى خليج العقبة. أما المرتفعات في تلك الناحية

(١) أسهبت كتب الجغرافيا والرحلات في الإشارة إلى هذا الموضوع ومن أوائلهم: ابن خرداذبة، واليعقوبي، والحربي، والأصفهاني، والمقدسي، وابن حوقل، والاصطخري، والمسعودي، والهمداني، وابن رسته، والهمداني، وابن جبير، وياقوت الحموي، وابن الجاور، وابن بطوطة وغيرهم كثير. كما ذكرت كتب اللغة والأدب تفصيلات كثيرة في هذا الباب.

(٢) كتب التراث الإسلامي مليئة بالإشارات إلى بلاد تهامة تاريخها وجغرافيتها، والعقبات التي واجهت أهلها على مر التاريخ. ومازالت أراضي تهامة في شبه الجزيرة العربية تستحق الكثير من الدراسات الجغرافية والتاريخية والحضارية المتنوعة.

(٣) هذه بلاد واسعة فالمسافة بين مكة المكرمة وبلاد الموسم على الحدود اليمنية السعودية حوالي (٨٠٠ كم). وعرضها يتراوح من (٢٠ و٤٠ كم) إلى (٩٠ وربما ١١٠ كم).

فهي مختلفة تماماً في جبالها، وحزونها، وأوديتها عن السراة وتهامة الجنوبية. وهي ليست سروات بالمعنى الصحيح، وإنما هي هضاب وجبال محدودة الارتفاع ولم تكن مثل السروات، الأخرى عالية الارتفاع، وشديدة الانحدار نحو الأراضي التهامية^(١).

٢. العالم اليمني أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني من أهل القرنين (٣-٤هـ/٩-١٠م) الهجريين يتحدث في صفحات عديدة عن بلاد السراة وتهامة من اليمن إلى بلاد الشام^(٢)، ويشير إلى معلومات قيمة عن السروات الممتدة من اليمن إلى الطائف، وذكر تلك المرتفعات بأسماء الأمم أو القبائل التي تعيش فيها. فأشار إلى سراة مذحج، وسراة خولان، وسراة وادعة، وسراة جنب، وسراة عنز، وسراة الحجر، وسراة غامد، وسراة دوس، وسراة فهم، وسراة عدون، وسراة الطائف. ولا نجده يذكر مثل ذلك عن السراة من مكة إلى شمال شبه الجزيرة العربية^(٣).

٣. الباحث عن هذه السروات الآنف ذكرها في النقطة السابقة يجدها. مازالت تحمل الأسماء نفسها التي ذكرها الهمداني في القرون الإسلامية الأولى. ولها علاقات قوية بالأجزاء التهامية التي تقع عند سفوح السروات الغربية. والسكان في هذه الأجزاء التهامية والسروية تربطهم روابط نسب قوية، والكثير منهم يعودون إلى جد واحد. وهذا الترابط في النسب يجري أيضاً على القبائل والعشائر في منطقتي جازان ونجران فهم يتداخلون في النسب مع قبائل أخرى عديدة في تهامة وسروات اليمن. وبعض العشائر التي تعود في نسب واحد تجدها موزعة في بلدان نجران وجازان وما جاورها من أراضي اليمن.

٤. من يدرس أحوال السراة وتهامة قديماً، ثم ينظر إلى طبيعتها وتركيبتها السكانية حديثاً، يلحظ عدم تغير في جغرافية الأرض بين القديم والحديث. وبخاصة معالمها الكبيرة من الجبال، والأودية، والمنحدرات، والسهول التهامية،

(١) هذا ما عرفته وشاهدته في عموم السروات الممتدة من بلاد الشام إلى بلاد اليمن، والاختلافات واضحة لمن يسير في مناكبها.

(٢) الحسن الهمداني، صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن علي الأكويع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). ص ٥٨، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٢ وفي صفحات أخرى عديدة ذكر السروات الممتدة من صنعاء وصعدة إلى الطائف.

(٣) المصدر نفسه، ١١٦، ١١٩، ١٢٥، ١٥٨، ٢٥٢، ٢٧٨.

ومازلنا نسمع حتى اليوم استخدام مصطلح تهامة وسراة كذا وكذا فيقال: سراة وتهامة قحطان، أو سراة وتهامة عسير، أو سراة وتهامة غامد وزهران، أو سراة وتهامة الطائف. وهناك من يذكر تفصيلات أدق فيذكر بعض الأمكنة باسم حاضرة، أو مدينة، أو محافظة، فيقال مثلاً: سراة أبها، أو سراة وتهامة النماص، أو سراة وتهامة بلجرشي أو الباحة. والذي تغير حديثاً أثر التطور والتنمية، فقامت مدن وحواضر كبيرة في تهامة والسراة، وشقت طرق تربط بين أجزاء البلاد واتصلت بالبلدان المجاورة مثل اليمن والحجاز، أو ساحل البحر الأحمر وشرق السروات. وأقول إن الأوضاع الجغرافية الطبيعية والبشرية قديماً وحديثاً مترابطة ومتشابهة في البلاد من مكة والطائف إلى اليمن. وتختلف كثيراً مع البلاد الممتدة من مكة المكرمة إلى شمال شبه الجزيرة العربية^(١).

٢. الصلات الدعوية والتعليمية :

إن اليمن والحجاز ذات تاريخ وحضارة قبل الإسلام وبعده، ولم تكن السراة وتهامة في مصاف تلك النواحي، والغالب عليها الانكفاء على نفسها وبخاصة البلاد الممتدة من غامد وزهران شمالاً إلى عسير وقحطان جنوباً^(٢).

وجاء الإسلام، ووصلت دعوة الرسول (ﷺ) إلى عموم جنوب شبه الجزيرة العربية، وتطورت الدعوة الإسلامية على يد دعاة الإسلام الأوائل، فنشروا الإسلام بين الأفراد والقبائل، وجاءت الوفود من بلدان اليمن وتهامة والسروات فأعلنوا إسلامهم بين يدي النبي (ﷺ) ثم عادوا إلى أوطانهم ومعهم معلمين من الصحابة الأوائل. ولم ينته عصر الرسالة، ويأتي عهد الخلفاء الراشدين إلا والإسلام صار دين الجميع، وأصبحت رحلة العلم بين اليمن والحجاز مألوفاً، يقوم بها البعض من الدعاة ومن يريد التفقه في الدين^(٣).

(١) هناك العديد من البحوث التي درست جغرافية اليمن والسروات وتهامة، والأراضي الممتدة، من الحجاز إلى الشام. ونتطلع إلى إجراء دراسات جغرافية مقارنة على هاتين الناحيتين، مع ذكر الظروف والأسباب التي تدور في فلك هذا التشابه والاختلاف.

(٢) إذا تجولت في أرجاء هذه البلاد لمعرفة شذرات من تاريخها القديم فلن تجد مصادر واضحة تذكر شيئاً من ذلك، ويوجد في جبالها ووهادها الكثير من النقوش والرسومات الصخرية، بالإضافة إلى بعض المقابر، والكهوف، والمدرجات الزراعية، والآبار، والدروب القديمة التي توحى للناظر أنها قديمة، لكن لا نعلم حتى الآن عصورها الدقيقة.

(٣) كتب التاريخ، والطبقات، والأعلام، والسير والتراجم تذكر أسماء كثيرين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن هذه البلاد نفسها من هاجر إلى الحجاز أو الأمصار الإسلامية خارج جزيرة العرب وعملوا في ميدان العلم والتعليم، وبرز منهم من صار له شأن في مكة والمدينة ومدن الإسلام الأخرى في الشام، والعراق، ومصر، والمغرب والأندلس.

تتابعت الدول الإسلامية منذ عصر الخلافة الأموية (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) حتى عصر الدولة السعودية الحالية، وبلاد تهامة والسراة تنال نصيبها من العلوم والمعارف، وكان للحجاز واليمن دور جيد في خدمة سكان هذه البلاد علمياً وثقافياً ومعرفياً. وفي الصفحات الآتية أذكر صوراً من حياة هذه البلاد في ميدان العلم والتعليم.

١. حظيت السراة وتهامة بالعديد من صحابة الرسول الكريم (ﷺ) التي جاءت لتبليغهم رسالة الإسلام. وخرج من أهل هذه البلاد من تعلم في مدرسة الرسول (ﷺ)، ثم عادوا لتعليم وتفقيه أهاليهم وقبائلهم الدين الإسلامي. وفي عصر الخلفاء الراشدين (١١-٤١هـ/٦٢١-٦٦١م) أرسلوا الأمراء والعلماء الذين يحكمون البلاد من الحجاز إلى اليمن، فبدلوا جهوداً حسنة في حكم البلاد بالعدل والإنصاف، وتفقيه الناس أمور دينهم. ثم تابعت دول الإسلام، وحكمت اليمن والحجاز حتى عصرنا الحديث^(١).

٢. كانت الحياة السياسية في الحجاز واليمن متفاوتة في أدائها من القرن (٢-١٤هـ/٨-٢٠م)، فلا تخلو من حروب وصدامات عسكرية. لكن حياتها الدينية والمعرفية مستمرة، فهناك علماء، وأدباء، وقضاة، ومحتسبون ينشرون العلوم والمعارف. ومعظمهم يعلمون ويفقهون تحت مظلة حكوماتهم، فتراهم لا يخرجون عن مبادئها وتوجيهاتها. ومنهم معارضون لسلطة أو حكومة ما فلا يتورعون في تعليم من يخالطهم أو يعملون من أجله. وقد أشرنا إلى تعدد الدويلات التي قامت في اليمن، والصراعات التي كانت جارية بين الأشراف في الحجاز، ومدعومة من بعض الحكومات أو القوى السياسية خارج شبه الجزيرة العربية أو داخلها. وكل هذه التعددية والاضطرابات السياسية أثرت قطعاً على سير الحياة العلمية والفكرية والثقافية. ولم تخل بلاد اليمن والحجاز من علماء جادين مجتهدين وسطين في أقوالهم، وسلوكهم وعلومهم فهم يسعون إلى نشر العلم لمن يطلبه أو يبحث عنه^(٢).

(١) تاريخ ودول الإسلام التي حكمت اليمن والحجاز من العصر الأموي حتى وقتنا الحاضر، تنوعت في أسباب ظهورها وسقوطها، وتفاوتت في نفوذها على بلاد اليمن والحجاز وما بينهما، اختلفت في مبادئها وعقائدها وأطماعها، وأحداثها، ونتائجها. وقد أثر ذلك على حياة الناس الثقافية والعلمية والتعليمية.

(٢) تاريخ الحياة العلمية والتعليمية والفكرية في اليمن والحجاز خلال القرون الإسلامية مدون في عشرات البحوث والكتب والرسائل العلمية، وهو موضوع واسع، وما زال هناك علماء أو موضوعات جديدة في هذا الميدان تستحق الدراسة والتوثيق.

٣. اعتمدت بلاد السروات وتهامة علمياً ومعرفياً على الحجاز في عصور الرسالة، والخلافة الراشدة، وبني أمية والعقود الأولى من العصر العباسي. لأن دولة الإسلام كانت موحدة سياسياً وإدارياً في آخر عهد الرسالة، ثم الخلافة الراشدة في المدينة، وبني أمية وبني العباس في دمشق، والعراق. وكانت هذه الحكومات مسؤولة عن تعليم الناس وتقبيهم في دينهم في أنحاء العالم الإسلامي. ونجد هناك الكثير من المصادر والوثائق التي تذكر أسماء العلماء والفقهاء الذين قاموا على تعليم الناس في الحجاز واليمن وما بينهما^(١). وعندما استقلت دول اليمن، وكثرت الفتن السياسية في أجزاء عديدة من العالم الإسلامي وزاد أعداد المجاورين من الفقهاء والعلماء في الحرمين، عندئذ كثر العاملون بالعلم والتعليم، وصار بعض السرويين التهاميين يهاجرون إلى خارج بلادهم، فيذهبون إلى مكة والمدينة، أو إلى مدن اليمن الرئيسية كي يتعلموا علوم الشريعة واللغة العربية، ومعظمهم يعودون إلى أوطانهم لتعليم أهل قراهم، وإمامتهم في صلواتهم، وتقسيم مواريتهم، والقضاء في خصوماتهم^(٢). وهناك فريق يخرجون إلى الأمصار الإسلامية، وغالبا لا يعودون، وينخرطون في تلك المجتمعات الجديدة، ويساهمون في حضارتها وتمدها^(٣).

٤. المصادر لا تفيدنا كثيراً عن التاريخ الثقافي والعلمي في أواخر العصر الإسلامي الوسيط^(٤). وفي العصر الحديث من القرن (١٠-١٤هـ/ق١٦م) نجد الدولة العثمانية والإمارات المحلية في السروات وتهامة تقدم بعض الدعم المادي والمعنوي لنشر العلم والمعرفة فتساعد وتشجع بعض طلاب العلم للسفر إلى الحجاز، أو الأزهر في مصر، أو زبيد والحديدة في اليمن للتعليم، وعند عودتهم يعينون في القضاء، والحسبة، والتدريس. وهناك طلاب آخرون يذهبون برغبتهم دون أن يشجعهم أحد، وعندما ينالون قسطاً من العلم

(١) انظر العديد من هذه الوثائق في كتب السير والتاريخ والتراجم والطبقات. ولا تخلو بعض كتب السنن والأموال والخراج من ذكر معلومات في هذا الموضوع.

(٢) من يدرس هجرة طلاب العلم من السراة وتهامة إلى اليمن والحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة يجد أعداداً جيدة تعلموا على علماء عديدين في الحجاز واليمن، وعندما أجازوهم عادوا إلى بلادهم لخدمتها علمياً ومعرفياً. وهذا موضوع مازال يستحق أن يدرس في عشرات البحوث. وربما جازان تعد أفضل النواحي في تهامة التي ظهر فيها علماء نالوا تعليمهم الأول في اليمن أو الحجاز.

(٣) إذا درسنا مصادر التاريخ الرئيسية في بلاد العالم الإسلامي خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، نجد أعلاماً كثيرين برزوا في علوم ومعارف عديدة، أو في مجالات سياسية وإدارية وحضارية أخرى وأصولهم من بلدان السروات وتهامة. هذا الموضوع لم يئل حقه من البحوث والتوثيق. أمل أن نرى مؤرخين جادين من بلاد السراة وتهامة يقومون بخدمة هذا الميدان دراسة وتوثيقاً.

(٤) ساد شبه الجزيرة العربية الكثير من الإهمال والنسيان في مجال البحث والتوثيق خلال القرون الإسلامية الوسيطة. وبلاد تهامة والسراة من أكثر المناطق المنسية والمهملة.

والتعليم يرجعون إلى بلادهم، وبعضهم يكلفون بأعمال قضائية وشرعية وتعليمية. وكان العثمانيون يجلبون معهم بعض العلماء والقضاة الذين يتولون أمور القضاء في ولاياتهم باليمن، وعسير، والحجاز وغيرها^(١).

٥. دخل التعليم النظامي في بلدان السروات وتهامة خلال عصر الدولة السعودية الحديثة بشكل كبير. فبعد أن دخلت هذه البلاد تحت حكم الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل جلب إليها علماء في الشريعة واللغة العربية، وموظفين آخرين عملوا في مؤسسات إدارية عديدة. وكانوا جميعاً على قدر كبير من الثقافة والعلم والمعرفة. وقد عاشوا وتعلموا في مواضع عديدة مثل: الحجاز، ونجد، واليمن، أو الشام، والعراق، ومصر، وبعض بلدان المغرب العربي^(٢).

٦. من يتتبع تاريخ الحياة العلمية والتعليمية والثقافية والفكرية في بلاد السروات وتهامة منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتنا الحاضر (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) فإنه يقف أمام قفزات سريعة وكبيرة في تعليم الإنسان التهامي والسروي (ذكورا وإناثا) فلم يبق اتصالهم العلمي فقط مع اليمن والحجاز كما كان في القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه وحتى الحديثه، وإنما تعلموا مراحل تعليمهم الأولى والجامعية في بلادهم (المملكة العربية السعودية) وكثير منهم ذهبوا في تعليمهم العالي إلى جميع دول العالم المتقدمة تعليمياً وصناعياً^(٣). وتولت الدولة إنشاء المدارس النظامية منذ خمسينيات القرن الهجري الماضي، ثم توسعت في هذا المجال أفقياً ورأسياً حتى أصبحنا نرى آلاف المدارس في مراحل التعليم الأولى، وحوالي ست جامعات (الطائف، والباحة، والملك خالد، وبيشة، وجازان، ونجران) التي تحتوي على عشرات الكليات، ومئات الأقسام الأكاديمية التي يدرس فيها عشرات الآلاف

(١) هناك الكثير من الوثائق والروايات التي ترصد تاريخ من يقوم بالتعليم في السروات وتهامة منذ القرن (١٠-١٤هـ/١٦-٢٠م)، وما زال أغلبها لم يدرس ويوثق. أرجو من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ أن يلتفتوا إلى مثل هذا الموضوع الجديد والجدير بالدراسة والتوثيق.

(٢) اطلعت على مئات الوثائق التي احتوت على أعلام كثيرين جاءوا إلى عسير، وجازان، والباحة والطائف أثناء قيام الدولة السعودية الحديثة. وعملوا وساهموا في بناء هذه البلدان تعليمياً ومالياً، وإدارياً، واقتصادياً، واجتماعياً. ودراسة جهود هؤلاء الرجال في السروات وتهامة من (١٢٤٠-١٤٠٠هـ/١٩٢١-١٩٨٠م) موضوع جيد، وكبير يستحق أن يدرس في عدد من الكتب والرسائل العلمية.

(٣) نجد التعليم العام والعالي في عموم المملكة صار متقدماً في مجالات عديدة، وصار هناك كليات وأقسام علمية تضاهي نظائرها في العالم. وبرز الكثيرون من الطلاب والأساتذة الذين تفوقوا على أقرانهم في جامعات وكليات وأقسام عالمية. ومجال التعليم العام والعالي في جنوب المملكة العربية السعودية موضوع مهم، يستحق أن يوثق في عدد من الكتب والبحوث العلمية.

من الطالبات والطلاب، وبعضاً منهم جاء من بلدان عربية وإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه. ويعمل فيها المئات من أعضاء هيئة التدريس من السعوديين، والعرب، والعجم.

٣. الصلات الاقتصادية :

إن بلاد اليمن والسروات وتهامة متشابهة في جغرافيتها ومواردها الطبيعية، وفي مهنتها وحرفها الاقتصادية مثل: الصيد، والجمع والالتقاط، والرعي، والزراعة، والحرف والصناعات التقليدية، والتجارة^(١). وبلاد الحجاز وبخاصة مكة والمدينة تختلف في الجغرافيا والموارد الطبيعية عن البلاد السابقة، مع أنها لا تخلو من نشاطات اقتصادية عديدة، وأهمها التجارة والحرف التقليدية وكذلك الرعي والزراعة^(٢).

(*) والدارس للأحوال الاقتصادية في الحجاز واليمن وما بينهما خلال عصور

الإسلام المختلفة يخرج بالعديد من النتائج التي أذكر بعضها في النقاط الآتية :

أولاً: نجد العديد من طرق الحج والتجارة التي تربط اليمن بالحجاز عبر السراة وتهامة. والمصادر اللاتينية والعربية فصلت الحديث عن طريق الحرير الذي يخرج من اليمن ثم شرق السروات حتى الطائف ومكة المكرمة. والكثير من كتب التاريخ، والرحلات، والجغرافيا أسهبت في الحديث عن محطات تلك الطريق. وكانت تربة، ورنية، وتباله، وبيشة، وشرق مخلاف جرش من أهم المحطات السروية على ذلك الطريق^(٣). وهناك من أطلق على هذا الدرب بـ (طريق البخور) أو (طريق الحاج الجبلي) أو طريق السلطان، وكانت طريق نشطة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه والحديثه، فيسلكها التجار، والحجاج، والجيوش التي تخرج من الحجاز إلى اليمن لقمع بعض الثورات، أو من اليمن إلى السروات والحجاز لتحقيق بعض الانتصارات والمكاسب المادية والعسكرية^(٤).

(١) هذا ما دونته الكثير من المصادر المبكرة والمراجع المتأخرة. وما عرفته وشاهدته في الكثير من الآثار السطحية مثل: الأحمية، والآبار، والطرق التجارية القديمة، والمدرجات الزراعية، والأسواق الأسبوعية، ومصطلحات ومفردات اللهجات المحلية وغيرها.

(٢) بلاد الحجاز غنية بتاريخها الاقتصادي عبر عصور التاريخ وبخاصة الحياة التجارية والحرف والصناعات التقليدية، وتأتي في مرتبة ثانية بعد اليمن والسروات وتهامة وبخاصة في الحياتين الرعوية والزراعية.

(٣) انظر معلومات أكثر في مصادر عربية ولاينية فصلت الحديث عن طريق الحرير الذي يسير من شرق السروات ويربط بين اليمن والحجاز. وهذا الطريق وبخاصة في بلاد السروات مازال يستحق بعض الدراسات العلمية الأثرية العميقة.

(٤) تذكر المصادر التاريخية الكثير من الجيوش والقادة والعلماء والحجاج الذين كانوا يرتادون هذه الطريق منذ فجر الإسلام حتى القرن (١٤هـ/٢٠م). وللأسف أننا لا نجد دراسات أكاديمية تفصل الحديث عن محطات هذه الطريق، وأهميتها لمرتابها عبر عصور التاريخ الإسلامي.

طرق أخرى تسير من اليمن إلى الحجاز والعكس عبر الأجزاء الساحلية أو السهلية التهامية. وهي أكثر من طريق، وقد أشارت إليها المصادر التاريخية المبكرة والمتأخرة، في البلاد من جازان (المخلاف السليماني) إلى مكة المكرمة. ومن ضمن تلك الطرق (طريق الجادة) التي تسير في السهل التهامي الواقع بين سفوح جبال السروات الغربية، وساحل البحر الأحمر^(١). والدارس للحياتين السياسية والحضارية في اليمن والحجاز عبر عصور الإسلام يلحظ أن الطرق التهامية كانت مفضلة ومسلوكة بشكل كبير يفوق نشاط الطريق السروي، وربما سهولة الأراضي التهامية هي من الأسباب الرئيسية التي تجعل المسافرين يفضلونها على غيرها^(٢).

ولا نجد ذكراً واضحاً لقمم السروات الممتدة من بلاد قحطان وعسير إلى الطائف، ولا نعلم هل كان هناك طريق رئيسي مسلوكة عبر هذه الجبال، لأن جل المصادر المبكرة ركزت في حديثها على الطرق السابق ذكرها. وهناك مؤلفات ومراجع عربية وأجنبية خلال القرنين الماضيين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م) تحدثت أيضاً عن الطرق التهامية والسروية الشرقية^(٣). لكنها لم تذكر بشكل واضح طريق أو طرق رئيسية مسلوكة في أعالي المرتفعات السروية. وهناك بعض الآراء أو الأسباب، وهي على النحو الآتي :

١. إن أعالي جبال السروات من وادعة وقحطان إلى الطائف مأهولة بالقبائل العربية الرئيسية التي استوطنت أراضيها منذ آلاف السنين قبل الإسلام. وهذه القبائل سعت إلى إحاطة نفسها بسياج من الاستقلال والعزلة، فلا ترغب أن تتضوي تحت أي سلطة أو حكومة خارجة عن حدود بلادها. وإدارة أوطانها متروكة لأعيانها ووجهائها وشيوخها^(٤). وهذه العزلة جعلتها لا تقبل

(١) حيداً أن نرى باحثاً جاداً يدرس محطات الطرق الساحلية والسهلية التهامية التي تصل ما بين مكة المكرمة وجازان. وهناك شروحات كثيرة عنها في كتب التراث الإسلامي المبكرة وبخاصة المؤلفات الجغرافية والرحلات، لكنها لا تخلو من التناقض والاضطراب في الحديث عن مواقع تلك الاستراحات، وأهميتها التاريخية والحضارية.

(٢) تاريخ ودول الإسلام التي حكمت اليمن والحجاز من العصر الأموي حتى وقتنا الحاضر، تنوعت في أسباب ظهورها وسقوطها، وتفاوتت في نفوذها على بلاد اليمن والحجاز وما بينهما، واختلفت في مبادئها وعقائدها وأطماعها، وأحداثها، ونتائجها. وأثر ذلك على حياة الناس الثقافية والعلمية والتعليمية.

(٣) الكتب التاريخية مليئة بالأخبار عن الجيوش، والتجار، والحجاج وعموم المسافرين الذين كانوا يسلكون الطرق التهامية التي تربط بين الحجاز واليمن. ولا أعرف حتى الآن أن هناك دراسة أو دراسات علمية موثقة عن هذه الطرق وبخاصة التي تربط بين تهامة اليمن ومكة المكرمة. أرجو أن نرى بحوثاً علمية قيمة في هذا الموضوع ومن أساتذة أو طلاب دراسات عليا متخصصين.

(٤) هذا ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية المبكرة التي ذكرت بعضاً من الحروب القبلية في هذه الأوطان. وجاءت الوثائق الحديثة (ق ١٠. ق ١٤هـ/ ق ١٦. ٢٠م) فأكدت ما ذكرته تلك المصادر الأولية.

الغريب^(١). كما أن قبائلها مستقلة بعضها عن بعض، وغالباً تكون في صراعات وحروب قبلية مستمرة. وتلجأ القبائل أحياناً إلى عقد التحالفات ضد قبائل وعشائر أخرى تعيش في البلاد نفسها^(٢).

٢. يغلب على مرتفعات السروات صعوبة تضاريسها، والمسافرون دائماً يبحثون عن سهولة الطريق، فهم يمشون على الأقدام، ويأخذون معهم الدواب (الحمير، والجمال) التي تحمل أمتعتهم. وإذا ساروا في بعض الدروب الصعبة التي تتخلل مرتفعات السروات فإنهم يقابلون صعوبات كثيرة في وعورتها^(٣)، كما أن الأمن مفقود في هذه الأوطان، لعدم وجود إدارة رئيسية تحكم بلادهم، وقيام بعض اللصوص وقطاع الطرق بالاعتداء على الحجاج والمسافرين الذين يعبرون بلادهم^(٤).

وفي بدايات توحيد المملكة العربية السعودية استمر الحجاج والمسافرون يسافرون بالطرق البدائية في السروات وتهامة، ومنذ العقد الخامس للقرن (١٤هـ/٢٠م) بدأت بعض السيارات تصل إلى أبها عن طريق بيشة. وبقيت معظم الطرق في البلاد مسلوكة مشياً على الأقدام أو ركوباً على الدواب. وفي العقود الأولى من النصف الثاني للقرن (١٤هـ/٢٠م) تزايدت حركة السيارات في البلاد، وبدأت القبائل في عموم السروات وتهامة تسعى إلى تمهيد الطرق التي تجعل السيارة تصل من الطائف وبيشة أو من مكة والليث والقنفذة إلى بلادهم^(٥).

(١) في بعض الوثائق روايات تؤكد ما أشرت إليه، كما سمعت وشاهدت خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) عدم قبول الغريب الذي يأتي من مواطن بعيدة إلى بلادهم، وأحياناً لا يقبلون الغريب من قبائل وعشائر أخرى مجاورة.

(٢) ظاهرة التحالفات بين القبائل معروفة عند سكان شبه الجزيرة العربية منذ القدم، واستمرت خلال القرون الإسلامية المختلفة. ونجد الكثير من الأمثلة في التاريخ والحضارة الإسلامية. وهناك عشرات الوثائق التي تذكر الكثير من الاتفاقيات والتحالفات القبلية في عموم السروات وتهامة. وهي مصادر جيدة وجديدة لم يسبق دراستها وتوثيقها.

(٣) لا ننكر وجود طرق في مرتفعات السروات، فأهل البلاد أنفسهم يترددون على بلاد الحرمين للحج، أو العمل، أو التجارة. وقد سمعت من بعض الأباء والأجداد خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) قصصاً كثيرة عن الحجاج والمسافرين الذين كانوا يخرجون من سروات عسير، والباحة، والطائف إلى مكة المكرمة. وهناك مسافرون آخرون يذهبون إلى اليمن للتجارة أو التعليم. وهذا موضوع لم يدرس إطلاقاً في العصر الحديث. أمل أن نرى باحثاً جاداً يدرسه وبخاصة في البلاد الممتدة من سروات قحطان إلى الطائف.

(٤) كانت هذه الاعتداءات مألوفة وسائدة في بلاد تهامة والسرعة حتى العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م). بل إن المسافرين والحجاج كانوا يخرجون من اليمن إلى الحجاز أو العكس فيواجهون قطاع طرق كثيرين، وبعضهم يفقد حياته أو متاعه على أيدي أولئك المعتدين. وسمعت أيضاً روايات عديدة من الرواة في تسعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) وهم يذكرون شيئاً من تلك الاعتداءات في بلادهم وما جاورها.

(٥) سمعت روايات كثيرة تذكر الصعوبات التي قابلها أهل السروات وتهامة من أجل وصول السيارات إلى بلادهم. وكان الأمر سهلاً إلى حد ما في البلاد الممتدة من الطائف إلى بيشة ومن مكة إلى الليث والقنفذة. والصعوبات الكبيرة في مرتفعات السروات من الطائف إلى أبها وخميس مشيط وظهران الجنوب.

لم تدخر حكومة المملكة العربية السعودية جهداً في خدمة الناس وتسهيل المواصلات فعملت في بادئ الأمر على مد الطرق الترابية من الطائف إلى بيشة، ومن مكة إلى الليث والقنفذة. ثم واصلت جهودها منذ سبعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) وبدأت في شق طريقين رئيسيين أحدهما؛ يخرج من الطائف عبر قمم السراة إلى أبها وظهران الجنوب ونجران ثم سروات اليمن^(١). والثاني؛ من مكة المكرمة إلى جازان ثم تهامة اليمن^(٢). ولم يأت في نهاية القرن (١٤هـ/٢٠م) إلا وهذان الطريقان ممهدان مسفلتان وتسلکہما معظم السيارات. كما عملت الدولة على ربط المدن والحواضر في عموم بلاد تهامة والسراة. وجاء هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) فتطورت الطرق البرية في عموم المملكة العربية السعودية. ونشأت شبكة طرق كبيرة وجيدة ربطت جميع القرى، والمدن، والحواضر، والمحافظات بعضها مع بعض^(٣). والذاهب اليوم (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) في أرجاء السروات وتهامة يلاحظ كل الطرق الفردية والمزدوجة مسفلتة. ويشاهد جميع أجزاء البلاد مترابطة بعضها مع بعض في شبكة طرق برية جيدة ومتكاملة. كما أن أعالي السروات أصبحت متصلة بالأجزاء التهامية بالعديد من العقبات المسفلتة^(٤). وفي إحدى رحلاتي من الطائف إلى ظهران الجنوب حصرت أكثر من (٢٥) عقبة تربط بين أعالي السروات والأجزاء التهامية، وبعضها سهلة وتسلکہا جميع السيارات، وأخرى وعرة فلا يسلكها إلا السيارات القوية ذات الدفع الرباعي^(٥). كما أن بلاد الحجاز واليمن وجميع مناطق المملكة العربية السعودية مرتبطة مع بلدان السروات وتهامة بطرق مزدوجة وحديثة^(٦).

(١) هذا الطريق السروي الحديث من الطائف إلى ظهران الجنوب ونجران مر بالعديد من المراحل والعقبات منذ سبعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) حتى وقتنا الحاضر (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)، وهو موضوع جديد لم يدرس ويستحق أن يوثق تاريخه في كتاب أو رسالة علمية.

(٢) الطرق التهامية الحديثة من مكة المكرمة إلى جازان ثم زبيد والحديدة وعدن مرت هي الأخرى بمراحل تاريخية عديدة وهي تستحق أن تدرس في أكثر من بحث علمي.

(٣) تاريخ المواصلات البرية في المملكة العربية السعودية عامة وبلدان السروات وتهامة خاصة يستحق أن يدرس في دراسات علمية موثقة.

(٤) هناك طرق كثيرة تربط السروات بتهامة في البلاد الممتدة من الطائف إلى سروات وادعة وقحطان. ومن أكبر تلك الطرق عقبة الهدا في الطائف، وعقبة الباحة في بلاد غامد وزهران، وعقبنا شعار وضلع في عسير. وهذه الطرق وكل العقبات المسلوكة حالياً تستحق أن توثق في عدد من البحوث. وهناك عقبات تاريخية مثل عقبة سنان في محافظة النماص، وعقبة ضلع في أبها وغيرها تستحق أن تدرس دراسات علمية أكاديمية.

(٥) وقفت على كثير من الدروب التي تربط السروات وتهامة. وبعضها قديمة، واستخدمت في قرون ماضية لأهداف تجارية أو حربية، لكنها كانت ضيقة فلا يسلكها إلا الدواب والمسافرون على الأقدام. أما اليوم فإن جميع العقبات المعروفة تسلكها السيارات المتنوعة.

(٦) تعيش بلاد السراة وتهامة طفرة حضارية حديثة. وطرق المواصلات من أهم العوامل التي ساعدت على تطوير وتنمية الأرض والناس. وما تعيشه هذه البلاد اليوم من حركة تنموية جدير بالدراسة والتوثيق.

ثانياً: الأسواق الأسبوعية قديماً في شبه الجزيرة العربية من أهم مراكز الالتقاء الحضاري التي يرتادها الناس. والقبائل تقوم على تأسيسها والحفاظ على أمنها. والحجاز، والسروات وتهامة، واليمن مليئة بهذه الأسواق. والمتأمل في مصادر عديدة من كتب التراث يجدها تذكر أسواقاً أسبوعية في مدن وقرى السراة وتهامة. ومعظم محطات الطرق التجارية التي تربط بين الحجاز واليمن لا تخلو من أسواق يباع ويشترى فيها الكثير من السلع المحلية، أو الواردة من اليمن أو الحجاز^(١).

ونجد في الوثائق التاريخية الحديثة من القرن (١٠ - ١٤هـ/ق ١٦ - ٢٠م) معلومات جيدة عن أسواق أسبوعية في بلاد قحطان وشهران، وسروات وتهامة البلاد الممتدة من أبها والدرب وبيش إلى مكة والطائف. ومعظم هذه المصادر باللغة العربية، ومنها وثائق بالحرف العثماني القديم، أو ببعض اللغات الأجنبية وبخاصة الإنجليزية^(٢). واتضح لي من هذه الوثائق الأدوار التي تبذلها القبائل في حماية أسواقها. وبعض الحروب والصراعات التي حدثت على مواقع الأسواق وأوقات انعقادها. وهناك أسواق مشهورة بالسلع التي تستوردها من اليمن والحجاز^(٣).

وفي العصر الحديث والمعاصر تراجعت الأسواق الأسبوعية، وحل محلها الأسواق الحديثة التي توسعت في أماكنها ومعروضاتها. وترابطت أجزاء الكرة الأرضية من خلال وسائل المواصلات والاتصالات. وأصبح يصدر إلى أسواق اليمن والحجاز والسروات وتهامة سلعا محلية، وإقليمية، وعالمية^(٤).

ثالثاً: كانت بلاد السراة وتهامة غنية بمحاصيلها الزراعية، وثرواتها الحيوانية. وعرف ذلك من التقارير ووثائق الزكاة التي كانت تؤخذ من أهل البلاد خلال القرون

(١) الكتب اليمنية والحجازية، ومؤلفات الجغرافيين والرحالة الأوائل من القرن (١٠٣هـ/١٦٩م) تحتوي على إشارات كثيرة تذكر بعض الأسواق في الحجاز واليمن، وعلى طول الطرق التجارية التهامية والسروية.

(٢) اطلعت خلال الثلاثين عاماً الماضية على الكثير من هذه الوثائق عند بعض الأسر في الحجاز وتهامة والسروات، وفي بعض المكتبات ودور الأرشيف الرسمية في الرياض، والقاهرة، واستنبول، ولندن. وحصلت على صور من بعضها، أرجو أن أتمكن من نشرها قريباً حتى يستفيد منها طلاب المعرفة والبحث العلمي.

(٣) بعض تلك الأسواق في الطائف، وسروات غامد وزهران، وبلاد الحجر، وعسير، ووادة ونجران، وابو عريش، وصبيا، والدرب، وبيش، ورجال ألمع، ومحال عسير، والمخوة. وكانت الأسواق الأسبوعية منتشرة في أنحاء تهامة والسراة، ونشطة جداً خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة والحديثة حتى العقد الثاني من القرن (١٥هـ/٢٠م).

(٤) لا يوجد وجه مقارنة بين تجارة الماضي وتجارة اليوم. فالأسواق الأسبوعية كانت محدودة في زمنها، وسلعها، وما يحيط بها من المخاطر الطبيعية والبشرية. أما أسواق اليوم فهي كثيرة لاتعد ولا تحصى وتتعدد في مساحاتها، وجودتها، وسلعها، وقوانينها، والأيدي العاملة فيها.

الإسلامية المختلفة^(١). كما وجدنا تفصيلات جيدة تذكر تصدير التهاميين والسرويين للكثير من الحبوب والمواشي إلى أسواق الحجاز، فهم يقايضونها بسلع وبضائع أخرى، أو يبيعونها نقدا بالدرهم. وهناك بعض الرحالة في العصور الإسلامية الوسيطة مثل: ابن جبير، وابن المجاور، وابن بطوطة وغيرهم ذكروا شيئاً من تلك السلع التي كانت تباع في أسواق مكة. والمكيون أنفسهم كانوا حريصين على استيرادها وعرضها في أسواقهم وبخاصة في مواسم الحج^(٢). ووثائق العصر الحديث وكتب الرحالة الأجانب ذكرت تردد السرويين والتهاميين على أسواق مكة، أو على الأسواق الأسبوعية اليمنية المحاذية لنجران وجازان، وذكرت الكثير من السلع التي يتبادلونها، وصورا من طرق التعامل التجاري فيما بينهم^(٣).

رابعاً: لم تكن السراة وتهامة خلال القرون الإسلامية المختلفة تمتلك تعاملات تجارية مستقلة. وإنما تابعة للقوى السياسية في اليمن أو الحجاز. فالعملات التي تعامل بها الحجازيون واليمنيون هي العملة نفسها التي عرفها السرويون والتهاميون. وبعض العملات خلال القرون الإسلامية الوسيطة سكت في الشام أو العراق أو مصر، وهناك عملات سكت في مكة أو المدينة، وأخرى في اليمن، أو جازان (المخلاف السليمانى)^(٤). وفي العصر الحديث (ق: ١٠-١٥هـ/ ق: ١٦-٢٠م) ظهرت عملات محلية، وإقليمية، وعالمية. ومن أكثرها تداولاً في اليمن والحجاز والسراة خلال القرنين (١٢-١٤هـ/ ١٩-٢٠م) الريال الفرنسي، والجنيه الإنجليزي، وعملات عثمانية متعددة. وعرفت

(١) من يطالع كتب السنن، والتاريخ، والأموال، خلال القرون الإسلامية المبكرة يجد أن السرويين والتهاميين كانوا يدفعون زكوات مزارعهم ومواشيهم إلى بيت المال في الحجاز أو الشام والعراق. وفي العصر الحديث عثرنا على الكثير من السجلات والوثائق التي رصدت مقادير الزكوات التي كانوا يدفعونها للحكومات أو الإمارات التي حكمت بلادهم من القرن (١٢-١٤هـ/ ١٨-٢٠م). وهذا الموضوع جديد في باب، ولا أجد باحثين درسيه ووثقوه. أمل أن نرى من طالباتنا وطلابنا في برامج الدراسات العليا من يقوم بخدمة هذا الميدان بحثياً وتوثيقياً.

(٢) الصلات التجارية، وبخاصة الاستيراد والتصدير، بين السرويين والمكيين خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط لم يُدرس ويستحق أن يدرس في كتاب أو رسالة علمية.

(٣) التبادل التجاري بين بلدان السرويين والتهاميين مع الحجازيين واليمنيين خلال القرون الثلاثة الماضية (ق: ١١-١٤هـ/ ق: ١٧-٢٠م) موضوع واسع يستحق البحث والتوثيق في عشرات البحوث العلمية. أمل من جامعات المملكة العربية السعودية والحكومة اليمنية أن تشجع أقسامها التاريخية والحضارية على دراسة مثل هذه الميادين العلمية المهمة.

(٤) سكت عملات إسلامية عديدة في عصور الدول الأموية، والعباسية، والفاطمية، والأيوبيّة، والمملوكية. وكثير من دويلات اليمن سكت عملات خاصة بها. كما ضربت بعض العملات في مكة، وجازان، وربما بعض الحواضر الكبيرة في السراة وتهامة مثل: بيشة، وتباله، والطائف وغيرها. وبعض المصادر المبكرة أشارت إلى شيء من هذه العملات.

عملات أخرى عربية وغربية وشرقية^(١). وصارت العملة العربية السعودية هي العملة السائدة منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م). وعرفت العملة اليمنية الحديثة (الريال اليمني)، ويستخدم حتى اليوم في التعاملات التجارية في الأجزاء الجنوبية من السراة وتهامة، وبخاصة في المناطق الحدودية مع جازان، وعسير، ونجران^(٢).

ومن التعاملات التجارية الأوزان والمكاييل، ولم تختلف في عموم شبه الجزيرة العربية. والصاع، والمد، والأوقية، والبيع والشراء بالجملة كلها تعاملات عرفها السكان في اليمن، والسروات وتهامة، والحجاز. وكتب السنن، والفقه والخراج والأموال، ذكرت معلومات جيدة في هذا الجانب. وعلماء الشريعة وبخاصة الفقهاء والقضاة فصلوا الحديث في الأوزان والمكاييل المستخدمة عند المسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها. وفي العصر الحديث عرف الناس أوزاناً ومكاييل جديدة مثل الطن، والكيلوجرام، والجرام وغيرها^(٣).

خامساً : كانت مهنتا الرعي والزراعة ممارسة بشكل واسع في اليمن والسروات وتهامة خلال القرون الإسلامية (ق١- ق١٤هـ/ق٧- ق٢٠م)^(٤). والمتجول اليوم في أرجاء تهامة والسراة يلاحظ معظم جبالها، وأوديتها، ووهادها ذات غطاء نباتي جيد، وفيها كل الأشجار، والحشائش، والأعشاب الصالحة للرعي^(٥). ومازلنا نشاهد آثاراً كثيرة لبعض الأحمية في أجزاء من السروات الممتدة من الطائف إلى ظهران الجنوب وما جاورها^(٦).

(١) هناك بحوث عديدة صدرت خلال الأربعين عاماً الماضية في هذا الموضوع. ويوجد بعض الوثائق الحديثة غير منشورة وفيها تفصيلات عن العملات التي عرفها العالم خلال القرنين (١٢-١٤هـ/١٩-٢٠م).

(٢) شاهدت بعضاً من هذه التعاملات خلال الثلاثين عاماً الماضية في أسواق الخوبة، والموسم، وأحد المسارحة، وسامطة في جازان. وظهران الجنوب في عسير. وفي منفذ شروري الحدودي. تاريخ العملة في بلاد السراة وتهامة منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر موضوع لم يدرس ويستحق أن يكون عنواناً لبحث أو رسالة علمية.

(٣) رصد تاريخ المكاييل والأوزان عبر عصور التاريخ الإسلامي موضوع جيد ونوعي، ولا نرى الباحثين المؤرخين في وقتنا الحاضر يدرسونه. ويستحق الدراسة والمقارنة في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة، والحديثة والمعاصرة.

(٤) أشارت كتب التراث الإسلامي إلى معلومات متفرقة تؤكد ممارسة الرعي والزراعة عند عموم سكان السروات وتهامة، واليمن، والحجاز. للمزيد انظر كتب السنن، والفقه، والأموال والخراج، والجغرافيا والرحلات وكثير من المصادر التاريخية الحولية والموضوعية، وبعض المعاجم الجغرافية واللغوية.

(٥) السروات من أغنى بلدان شبه الجزيرة العربية في تنوع نباتها وأشجارها وحشائشها. وأبو حنيفة الدينوري من أهل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ألف كتاباً في عدة مجلدات عن نباتات الجزيرة العربية. ومعظم مادة هذا المصدر درست نباتات السروات الممتدة من الطائف إلى صعدة وصنعاء. ومازال الكثير من النباتات التي أشار إليها الدينوري موجودة في هذه البلاد حتى الآن. ومصادر اللغة وبخاصة المعاجم اللغوية مثل: لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي مليئة بالمعلومات التي تختص بالأشجار والنباتات السروية.

(٦) المصدر: مشاهدات الباحث ورحلاته في تهامة والسراة خلال السنوات الماضية المتأخرة. وقد اطلع على بعض الوثائق التي تعود إلى القرون الماضية (ق١١-١٤هـ/ق١٧-٢٠م)، وهي تحتوي على بنود واتفاقيات عديدة بين بعض العشائر أو القرى التي حمت بعض الأحمية لرعي مواشيتها، وجمع الأخشاب للعمارة

والثروة الحيوانية كبيرة خلال عصور الإسلام المختلفة. وكتب الزكاة ووثائقها عكست أهمية بلدان تهامة والسراة التي كانت تجمع أموال كثيرة من زكاة أغنامها، وإبلها، وأبقارها وأثمانها وتوضع في بيت مال المسلمين^(١). وكان يُصدر الكثير من مواشيتها إلى أسواق اليمن والحجاز. وتعد المصدر الرئيسي الذي يزود أسواق مكة والمدينة بالهدي والأضاحي في مواسم الحج، وعيد الأضحى المبارك^(٢).

أما الزراعة فهي المهنة الأولى التي امتنها الكثير من سكان السروات واليمن. والذاهب في أرجاء هذه البلاد يرى آثار الحياة الزراعية بارزة في المدرجات التي يعود تاريخ بعضها إلى عصر ما قبل الإسلام، ومصادر التاريخ الإسلامي المبكرة والوسيط تذكر معلومات جيدة عن تاريخ الزراعة في الحجاز واليمن، أما بلاد تهامة والسراة فلم تخدم كثيراً في تلك المصادر، وإن كانت بعضها أشارت إلى شذرات قليلة من حياة الزراعة في هذه البلاد، مع أنني أعتقد أنها كانت متقدمة أحياناً على زراعة اليمن والحجاز^(٣). وهناك تقارب وتشابه كبير بين طرق الزراعة والري في اليمن والسروات. ومعظم المحاصيل المزروعة في اليمن هي نفسها في تهامة والسراة، مثل: الحبوب، والخضروات، والفواكه، والثمار الجبلية. والأسماء والأدوات التي تطلق على الأعمال الزراعية في سروات وتهامة بلاد عسير، والباحة، والطائف هي إلى حد ما نفس المصطلحات والألفاظ المعروفة في بلاد اليمن^(٤).

والبناء، أو لأعمال محلية أخرى. وقرأت مصادر تاريخية مبكرة ذكرت أهمية محددة في بلاد جرش (عسير حالياً)، وبيشة، وبعض بلدان اليمن والحجاز السروية والتهامية.

(١) من يقرأ الكثير من مصادر التاريخ والحضارة الإسلامية المبكرة يجد إشارات كثيرة للزكاة التي كان يجمعها جباة الدول الإسلامية. أما الوثائق الحديثة فهي مصادر جديدة ومهمة وتحتوي على تفصيلات كثيرة عن تاريخ جباية زكاة الحبوب والمواشي من التهاميين والسرويين.

(٢) هذا ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية المبكرة. أما وثائق العصر الحديث (١١-١٤هـ/١٧-٢٠م) ففيها مادة علمية كبيرة تشرح طرق جباية الزكاة من السروات وتهامة، وأسماء القبائل والعشائر التي كانت تدفعها، والحكومات أو الإمارات أو الأفراد الذين كانوا يجمعونها. والمقادير التي كانت تجمع من كل ناحية، أو حاضرة، أو قرية، أو قبيلة، أو عشيرة. وفي عهد الدولة السعودية الحديثة نجد مئات السجلات والوثائق الجديدة لمن أراد أن يدرسها في كتاب أو رسالة علمية.

(٣) قرأت الكثير من الكتب التي أرخت للزراعة في اليمن والحجاز، وتجولت في أمكنة عديدة من هذه البلاد، ووقفت على الكثير من آثار الحياة الزراعية في تهامة والسروات فوجدتها غنية جداً في أراضيها وتنوع محاصيلها الزراعية.

(٤) إعداد دراسة تاريخية ولغوية مقارنة للحياة الزراعية في اليمن والسروات وتهامة موضوع جديد لم يدرس، ومن يخدم هذا الميدان بحثياً فسيجد مادة كبيرة تصب في خدمة بحثه. وسوف يجد أيضاً الكثير من التشابهات وقليلاً من الاختلافات في هذا الموضوع. أمل أن نرى باحثين جادين يصدرون لنا معجم لغوية عن مفردات وألفاظ الحياة الزراعية في اليمن والسروات وتهامة، وما جرى عليها من تحولات وتبدلات في وقتنا الحاضر.

(* اطلعت على بعض الوثائق في العصر الحديث، وقابلت العديد من المسنين في العقد الأول من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وخرجت ببعض الرؤى التي أذكر أهمها في النقاط الآتية:

١. كانت الزراعة في الحجاز والسروات وتهامة مهنة رئيسية ونشطة منذ القدم حتى بدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، ثم تراجعت عندما ترك الناس مزارعهم، وعملوا في مهن أخرى عديدة، مثل: التجارة، والتعليم، والوظائف الحكومية والأهلية التي يجنون منها أرباحاً كبيرة، مع بذل جهود قليلة مقارنة بالأعمال الزراعية التي تحتاج إلى الكثير من الأعمال الشاقة. أما بلاد اليمن فمازالت الزراعة فيها نشطة، لضعف الحياة الاقتصادية^(١).

٢. قرأت مئات الوثائق التي تذكر أهمية الثروات الزراعية في السروات وتهامة، وكيف لعبت دوراً كبيراً في دعم الإمارات والحكومات السياسية التي قامت على أرضها، أو في الحجاز أو اليمن. وصدرت الكثير من حبوبها وثمارها إلى بيوت أموال تلك القوى السياسية في هيئة زكوات، أو هبات، أو مضاربات تجارية^(٢). وفي عهد الدولة السعودية الحديثة أكدت لنا الكثير من الوثائق أهمية تهامة والسراة في دعم خزينة الدولة في فترة التأسيس والتوحيد. وإدارة الأموال في الجنوب السعودي. ومديرية ثم وزارة المالية في عصر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل تحتوي على آلاف الوثائق التي ذكرت الأموال وزكاة الحبوب التي كانت تجلب من مناطق عسير، والباحة، ونجران، وجازان إلى بيت مال المسلمين في جدة ثم الرياض وهذا يدل على نشاط الحياة الزراعية في هذه الأوطان^(٣).

٣. وجدت الأوائل من التهاميين والسرويين ومن جاورهم كانوا أصحاب خبرة ودراية بالأنواء ومواسم الحرث والزراعة. ولديهم الكثير من المصطلحات اللفظية التي يطلقونها على تلك المواسم^(٤). وبعد أن تراجعت الزراعة في وقتنا

(١) لا تخلو بلاد اليمن من وظائف حكومية وأهلية وتجارة وغيرها، لكن الحياة السياسية مضطربة لكثرة الحروب والصراعات الداخلية. وهذا مما أثر على حياة الأرض والناس. مع أن بلاد اليمن غنية في جميع ثرواتها ومواردها الطبيعية.

(٢) هذا الذي قرأته في هذه الوثائق أثناء إمارات المتاحمة، وآل عائض، والمتصرفية العثمانية في عسير، أو الإمارات المحلية في جازان، أو بعض الإمارات أو الأمراء الأشراف في الحجاز، أو الدولة الزيدية، أثناء سعيها إلى السيطرة على نجران وأجزاء من جازان خلال القرون الماضية المتأخرة (١٠ق - ١٤هـ / ١٦ق - ٢٠م).

(٣) أرجو أن نرى باحثين جادين يطلعون على هذه الوثائق وتدرس وتحلل، ثم تنشر حتى يستفيد منها القراء وطلاب المعرفة.

(٤) كانوا عالمين بمواسم الزراعة والحصاد. والعرب بشكل عام يعرفون تلك المواسم، وكتب التراث أشارت إلى معلومات جيدة عن الأنواء وأوقات الزراعة خلال فصول السنة. وسمعت من الأباء والأجداد شروحات كثيرة في هذا الموضوع.

الحاضر، أصبحت أجيال اليوم لا تعرف أي شيء عن تاريخ وثقافة الأولين في مهنة الري والزراعة والحصاد^(١).

سادساً: كانت الحرف اليدوية والصناعات التقليدية جزءاً من حياة السابقين، فأهل القرى، والمدن، والبوادي. مارسوا حرفاً تخدمهم في حياتهم اليومية. وكل الصناعات والحرف القديمة متشابهة في جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية. إلا أن الظروف الطبيعية والتركيبية السكانية تلعب دوراً مهماً في وجود كل حرفة، ومدى أهميتها. فأهل البادية يركزون في أعمالهم على الرعي، والترحال، والاعتماد على ما يحصلون عليه من حيواناتهم في طعامهم وشرابهم، وبناء بيوتهم المصنوعة من الخيام الصوفية. ويجلبون بعض أغراضهم من القرى والمدن بالشراء، أو مقيضتها مع سلع يمتلكونها. وبعض البدو أحياناً في تهامة والسراة يبنون منازلهم من القش وأغصان الأشجار. وأهل الحضر في القرى والمدن يجمعون بين حياة البادية والحاضرة، فيربون الحيوانات الأليفة، ويمارسون الزراعة وكل ما يتعلق بها من حرث، وزراعة، وري، وحصاد. ومنهم من يقوم ببعض الحرف التي لها علاقة بالزراعة مثل: صناعة الأدوات المختلفة التي يحتاجونها في الحرث، والري، وبعضها مصنوعة من الجلد، أو الخوص، أو سعف النخل، أو من الأخشاب، أو الحديد .

وفي الحواضر من يمارس التجارة، لكن نسبتهم ضئيلة مقارنة بالرعي والزراعة. وفي هذه المجتمعات الحضرية من يمتن حرفاً يقتات منها مثل: الحدادة، أو الصياغة، أو النجارة، أو الدباغة والخرازة، أو الجزارة، أو الخياطة، أو الصباغة، أو صناعة الأدوات الحجرية والفخارية وغيرها من الصناعات القديمة^(٢). وهناك حرف تمارس في القرى والمدن، لأهداف تجارية يقتات أصحابها منها، وأخرى يمارسها البعض خدمة لأهل قراهم ومدنهم مثل: بناء المنازل ومرافقها، أو بناء المدرجات الزراعية، أو الأسواق الأسبوعية، أو الطرقات وغيرها^(٣). ومهن أخرى مثل: الحلاقة، والكي أو الحجامة،

(١) نعيش أجيال اليوم في عصر حديث أبدهم عن تاريخ وموروث آبائهم وأجدادهم. والواجب على مؤسسات التعليم والإعلام الحكومي والأهلي أن تضع ضمن خططها فقرات وبرامج تربط حياة الماضي بالحاضر حتى يكون إنسان هذه البلاد على دراية بتاريخه وحضارته عبر العصور.

(٢) عرفت بلاد الحجاز، والسراوات وتهامة، واليمن كل هذه الحرف، ومارستها بعض الأسر. ومعظم السكان لا يفضلون هذه المهن، وينظرون لمن يمارسها نظرة ازدراء وأحياناً احتقار. وهذه عادة جاهلية مارسها العرب قبل الإسلام واستمرت خلال القرون الإسلامية المختلفة، وهي تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية التي تنص على العدل والمساواة بين جميع أفراد المجتمع. وللأسف إن هذه النظرة التي تقوم على التمايز بين الناس حسب أعمالهم أو ألقابهم ما زالت سائدة في مجتمعات اليمن، والسراة، وتهامة، والحجاز ومعظم بلدان شبه الجزيرة العربية.

(٣) هناك من يمارس مهن للكسب مثل بناء المنازل والقصور. وربما قام البناء بمساعدة من يبني له بعض الأيام بدون مقابل. وأياماً أخرى يأخذ أجرته على ما قام ببنائه.

والطهي أو طبخ اللوائم في المناسبات، أو ذبح الأضاحي، أو حماية الزروع من الطيور، أو حراسة البيوت أو القرى، أو جمع الحطب والثمار من الأودية والجبال وغيرها^(١).

وفي حوزة بعض الأفراد والأسر في اليمن والسروات بعض الأوراق التاريخية التي تشير إلى أسماء حرف ومهن تمارس في الأسواق الأسبوعية، وأسعار بعض الأدوات المصنوعة، ويبدو أن تلك الصناعات محدودة فتباع وتشتري في نطاق ضيق، وقليل منها يُصدر إلى أسواق الحجاز واليمن. واطلعت على وثائق أخرى في دار الوثائق المصرية، وفي الأرشيف العثماني وفيها إشارات جيدة إلى بعض الصناعات الحديدية، والخشبية، والجلدية، والفخارية التي مارسها العسيريون والحجازانيون في أسواقهم وقراهم الرئيسية خلال القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)^(٢). وقد شاهدت في العقد الأخير من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وبدايات هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) أفراداً يمارسون بعض الحرف والصناعات القديمة في أسواق أبها، وخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومحايل عسير، والنماص، والباحة، والطائف، والقنفذة. ومعظمهم من أهل السراة وتهامة، وبعض اليمنيين. وفي الوقت الحالي مازلتنا نشاهد بعض هذه الصناعات في الأسواق الشعبية في نجران، وجازان، وعسير، وجميع الأيدي العاملة من اليمن، أو باكستان، أو الهند، أو مصر، ونادراً ترى إنساناً سعودياً يمارسها^(٣).

٤. الصلات الاجتماعية :

تاريخ المجتمعات التهامية والسروية لا تختلف كثيراً عن حياة المجتمع اليمني. فهم قبائل عربية سكنت أماكنها الحالية منذ عصور ما قبل الإسلام. فأزد السراة، من شمال مدينة أبها إلى الطائف، هاجروا من قعر اليمن منذ آلاف السنين، وسكنوا قمم السروات، وبعض أجزائها الغربية والشرقية. وخالطهم عشائر عدنانية في الأجزاء الشمالية الممتدة من بيشة وتباله إلى الطائف. أما الأجزاء الساحلية والسهلية التهامية فالكثير من سكانها من قبيلة كنانة العدنانية^(٤).

(١) معظم أفراد الأسر يمارسون مهنتهم الخاصة في بيوتهم ومزارعهم وجميع أمورهم المعيشية. وقد يستعينون ببعض أفراد مجتمعهم من باب التعاون والتكاتف، وأحياناً تدفع أجره لبعض الحرفيين.

(٢) حيناً أن تجمع هذه الوثائق وتدرس في بحث علمي، مع أنني جمعت بعضها، وأمل أن أصدرها في دراسة قادمة (بإذن الله).

(٣) السعوديون هم ملاك المحلات التجارية لتي تمارس هذه الحرف ويجلبون لها الأيدي العاملة من خارج المملكة العربية السعودية. وترى في الدكاكين الخاصة بهذه الصناعات أنواعاً كثيرة من الأدوات المصنوعة محلياً وأخرى مستوردة.

(٤) الذهاب في أرجاء البلاد، والدارس لتاريخ القبائل القحطانية والعدنانية يجد أن أرض تهامة والسراة متأثرة بالتركيبة السكانية في اليمن والحجاز، فالغالبية من سكان منطقتي عسير والباحة، وأجزاء من منطقة جازان، والطائف هم قبائل عربية يمنية قحطانية، ويخالطهم بعض العشائر والفخذ الشامية

(* هذه التركيبة السكانية أخذت زمناً طويلاً حتى تشكلت، وهناك عوامل عديدة أثرت في وضعها الديموغرافي، ومن تلك العوامل، ما يأتي :

١. الهجرات القبلية القديمة من بلاد اليمن إلى مناطق كثيرة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها. وحظيت السروات وأجزاء من تهامة بنسبة جيدة من تلك القبائل، وفي مقدمتهم عشائر عديدة من قبيلة الأزد التي استوطنت بلاد واسعة في مناطق عسير، والباحة، وجازان، والطائف. وبعضاً من عشائر الحجاز العدنانية خالطت القبائل اليمنية في الجبال السروية، وكثيراً منها سكنت الأراضي التهامية.^(١)

٢. لعبت الحروب قبل الإسلام وبعده أدواراً كبيرة في تركيبة سكان تهامة والسروات. فالصراعات القبلية في اليمن أو الحجاز جعلت القبائل القوية ترغم القبائل أو العشائر الصغيرة على ترك أوطانها والانتقال إلى مواضع أخرى. وكانت السروات وتهامة من أكثر البلدان التي تهاجر إليها تلك القبائل والعشائر المطرودة من مضاربها. وعندما تصل إلى أماكنها الجديدة تضطر أن تدخل في صراعات مع بعضها البعض، أو مع من وجدوا قبلهم من العشائر، ثم تدخل في تحالفات واتفاقيات قبلية جديدة كي تحمي نفسها ممن يهددها، وتبني مواطن استقرار جديدة.^(٢)

والأحوال السياسية والاقتصادية في اليمن والحجاز، وفي العالم قبل الإسلام وبعده أثرت في قيام الكثير من الحكومات والإمارات السياسية في جنوب شبه الجزيرة العربية، وهذا مما خلق حروباً كثيرة أثرت على تركيبة المجتمعات في اليمن والحجاز، وامتد تأثيرها إلى أراضي السروات وتهامة. فالمناطق الجنوبية مثل جازان ونجران وما جاورها انخرطت في الكثير من الأحداث السياسية والعسكرية في اليمن.^(٣) والوضع نفسه مع إمارات الأشراف في مكة

المضرية. ومنطقة الساحل من جنوب مكة المكرمة إلى جازان سكنها ومازال يسكنها أعداد كثيرة من أصول عربية عدنانية، وجلبهم من قبيلة كنانة.

(١) من يطالع كتب الأنساب المبكرة، والمراجع المتأخرة، ويتجول في أرجاء السروات وتهامة اليوم يجد أن نسبة الحقيقة فيما ذكرت عاليه. وما زالت دراسة الأنساب من الموضوعات الصعبة والشائكة تستحق دراسات أطول وأعمق.

(٢) كل القبائل التي نراها اليوم في عموم السروات وتهامة، جاءت إلى بلادها منذ عصور قديمة قبل الإسلام، ومرت بالكثير من الصراعات والاضطرابات السياسية حتى تشكلت تركيبتها الحالية.

(٣) للمزيد انظر تواريخ الدول التي قامت في اليمن من قبل الإسلام حتى العصر الحديث، وكيف كانت تمتد آثارها السلبية أو الإيجابية، إلى مناطق جازان ونجران وما جاورها.

المكرمة ومن يدعمهم من الحكومات الإسلامية الكبرى في الشام، أو العراق، أو مصر، فهم أيضاً على صلات سياسية وعسكرية مع قبائل تهامة والسراة الشمالية من الطائف حتى بيشة، ومن جنوب مكة حتى القنفذة.^(١) أما البلاد الوسطى للسراة وتهامة، من شمال مدينة أبها إلى سراة غامد وزهران، ومن الدرب ورجال ألمع إلى المجاردة والعرضيات والمخواة وقلوة فأرضها محكومة بقبائلها، وكل قبيلة أو عشيرة مستقلة بذاتها، وكانت جميعها في صراعات قبلية مستمرة منذ العهود القديمة إلى منتصف القرن الهجري الماضي^(٢). وفي عصر الدولة السعودية الحديثة تدخل بلاد السروات وتهامة عهد جديد يسوده الأمن والاستقرار، وقد جرى على أرضها حروب وصراعات عديدة أثناء فترة التوحيد في عهد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل (١٢٣٨ - ١٣٥٠هـ/١٩١٩-١٩٣١م) تم تحولت البلاد إلى جزء من حكومة المملكة العربية السعودية، وحلت المؤسسات الإدارية الرسمية محل هيمنة القبيلة ورموزها، واستمرت هذه البلاد في صلاتها الحضارية مع بلاد الحرمين، ولها أيضاً صلات جيدة مع المجتمعات اليمنية، وإن كان هناك بعض الصدامات العسكرية السعودية اليمنية، فتلك حروب وقتية، وسوف تعود إلى علاقاتها الإيجابية، لأنها أساساً تشترك في مقومات تاريخية واجتماعية وحضارية عديدة^(٣).

٢. لا تخلو مجتمعات السراة وتهامة من عناصر عربية وغير عربية قدمت إليها عن طريق الحجاز أو اليمن منذ عصر ما قبل الإسلام حتى وقتنا الحاضر. ومن يدرس مجتمعات الدويلات أو الإمارات أو القوى السياسية التي وصل نفوذها إلى أجزاء من السروات وتهامة حتى القرن (١٤هـ/٢٠م) فإنه يجد

(١) انظر تاريخ الحجاز في الكثير من المصادر والمراجع المطبوعة والمنشورة منذ العصر القديم حتى القرن (١٤هـ/٢٠م)، كيف كانت الحروب القائمة في مكة وما جاورها تؤثر على حياة القبائل التي تستوطن الطائف وجنوب مكة حتى بيشة والباحة والقنفذة.

(٢) أشارت بعض المصادر المبكرة إلى شيء من تاريخ هذه البلاد، وهيمنة القبائل على أرضها، والصراعات القبلية المستمرة بينها. وذكرت الوثائق الحديثة تفصيلات جيدة عن قبائل هذه النواحي، كيف ساهمت في بعض الأحداث والحروب التي جرت بين القوى السياسية في كل من عسير أو الحجاز وبخاصة في القرنين (١٣هـ/١٩٠٩م). وتاريخ هذه البلاد وصلاتها مع الحكومات الحديثة في الحجاز وعسير من (١٢ق-١٤هـ/١٨ق-٢٠م). موضوع لم يدرس في كتاب أو بحث مستقل أمل أن نرى باحثاً جاداً يتولاه بالدراسة والتحليل.

(٣) من أهم تلك المقومات الطبيعية الجغرافية والتركيبة البشرية. بالإضافة إلى الصلات النسبية، فأغلب سكان السروات وأجزاء من تهامة جاءوا من حواضر وقرى اليمن الرئيسية.

أجناساً إفريقية، وفارسية، وتركية، وأخرى شرقية أو غربية جاءت إلى هذه البلاد، وعاشت فيها ردحا من الزمن، وما زال بعضهم يقطنها حتى اليوم^(١).

ومن التقارب أو التشابه في الصلات بين اليمن والأراضي السروية والتهامية طرق اللباس، والطعام والشراب، والبناء والتشييد، واللغة واللهجات، والكثير من العادات والأعراف والتقاليد، وبعض الألعاب الرياضية والفنون الشعبية وغيرها. كل هذه المحاور قريبة الشبه، وأحيانا متطابقة ومتوافقة بين مجتمعات تهامة والسراة وبلاد اليمن (سراة وتهامة) منذ عصر ما قبل الإسلام حتى العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م). وكثير من بلاد اليمن وبخاصة الأرياف والقرى ما زالت تعيش الحياة نفسها التي كان يعيشها الأوائل من اليمنيين والسرويين والتهاميين. ومنذ ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) بدأت حياة المجتمع في السراة وتهامة تتحول إيجابيا في الكثير من الجوانب، والسبب هو تحسن وتطور الحياة المادية التي جعلت الفرد والمجتمع في هذه الناحية يتغير في ظروف حياته المعيشية^(٢).

وحياة المجتمع الحجازي وما جاوره من بلاد السراة كالتائف وما حولها كانوا يعيشون قديما حياة يسودها الفقر والحاجة، لكنهم أفضل من التهاميين في البلاد الممتدة من جنوب مكة إلى جازان الذين كانوا في وضع قاس لما يحيط بهم من فقر، وأمراض، وجوع، وسوء مناخ^(٣).

(١) اليوم يعيش فيها عناصر عربية وغير عربية جاءوا إليها من بلدان كثيرة في العالم. ومعظمهم قدموا إليها للعمل وكسب الرزق، ثم يعودون إلى بلادهم. وبعض السرويين والتهاميين يذهبون للزواج من نساء عربيات وغير عربيات، ومن ثم يحصلن على الجنسية أو الإقامة الرسمية.

(٢) قرأت الكثير من الكتب والبحوث المبكرة والمتأخرة التي درست حياة المجتمعات في اليمن وحواضر وقرى جازان، ونجران، وما جاورها من السراة وتهامة فلم أجد تغيرا كبيرا في أطعمة وأشربة، وألبسة وزينة، وعماراة تلك البلدان وبخاصة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيط والحديثة. وما تعيشه السراوات وتهامة في تاريخنا المعاصر هو الوضع نفسه الذي تعيشه بلدان المملكة العربية السعودية. ومعظم حواضر اليمن تغيرت هي الأخرى في طرق حياتها وعيشها بسبب العولة التي يعيشها العالم، وانفتاح بلدان العالم بعضها على بعض. لكن أجزاء كثيرة في اليمن ما زالت تعيش حياة بدائية كما كان يعيشها الآباء والأجداد بسبب الفقر وعدم قدرتهم على تحسين أوضاعهم. كما لا يوجد دولة تقوم على رعاية وخدمة الأرض والناس.

(٣) كان الفقر في كل مكان في شبه الجزيرة العربية، لكن حواضر الحجاز مثل مكة والتائف والمدينة عامرة بأسواقها وما يعرض فيها من السلع التي يحتاجها الناس. ومن يعيش في حواضر السراة من التائف إلى أبها كانوا هم أيضا في مستوى لا بأس به لغناء بلادهم بمواردها الطبيعية، ونشاط حياة الرعي والزراعة في أوطانهم. أما بلاد تهامة فكانت مقبرة لأهلها، لما يواجههم من الرزايا والكوارث والأوبئة التي تقضي على كل شيء فيها. ومن يزور أوطان تهامة اليوم ثم يقارنها مع العصور السابقة فليس هناك وجه مقارنة، حيث صارت مدن وحواضر وقرى متطورة ومتحضرة في شتى الجوانب.

وبعد قيام الدولة السعودية الحديثة وتطورها صارت حواضر الحجاز وبلدان تهامة والسراة متشابهة ومتقاربة في شتى الجوانب الحضارية، وإذا كان هناك بعض الاختلافات أو التفاوت في مفاصل الحياة الاجتماعية فذلك نسبي، لكن الجميع على صلوات حضارية مستمرة، والبعض من أهل الطائف والليث والقنفذة وما جاورها دخلوا في مصاهرات مع سكان الحجاز وبخاصة أهل مكة، وذهب الكثير من التهاميين والسرويين إلى مكة واستقروا فيها، وامتلكوا العقارات المختلفة، ودخلوا في علاقات متعددة مع سكان حواضر جدة ومكة وما حولها. (١)

خامساً: خلاصة آراء واقتراحات :

أدرجت في هذا القسم ثلاثة بحوث محدودة في مادتها العلمية عن أوطان السروات وتهامة وبعضاً من صلاتها السياسية والحضارية مع اليمن والحجاز خلال العصور الإسلامية. والدراسات الأولى والثانية عن تاريخ الدعوة الإسلامية بين الرسول (ﷺ) والتهاميين والسرويين، وصفحات من تاريخ السراة في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦٠-٧٤٩م). أما المبحث الثالث فهو: وقفات مختصرة عن الصلات السروية والتهامية مع اليمن والحجاز في العهود الإسلامية المبكرة، والوسيط، والحديثة.

وربما يقول قارئ، أو باحث إنما فعلته يدخل في باب ضياع الجهد والوقت وبخاصة في البحث الثالث الذي يمتد تاريخه على طول العصور الإسلامية المختلفة (ق١- ق١٥هـ/ق٧-ق٢١م). لأن البحث التاريخي العلمي الجيد يجب أن تتوفر له بعض المقومات الرئيسية التي يقوم عليها حتى يكون من الدراسات العلمية الرصينة. ومن تلك العوامل محدودية الزمن والمكان الذي يراود دراسته. وهذا العامل لم يتوفر إطلاقاً في الدراسة الثالثة التي تدور مادتها العلمية على بلاد يزيد طولها عن ألف كيلومتر، من مكة والطائف إلى حواضر اليمن الرئيسية. وأكثر من ثلاثمائة كيلاً عرضاً من ساحل البحر الأحمر الشرقي إلى رنية، وبيشة، وخميس مشيط، ونجران. كما أن فترته تجاوزت الألف وأربعمائة سنة (٢).

(١) تاريخ الصلات الحديثة والمعاصرة بين الحجاز والسراة وتهامة (١٢٥٠-١٤٤١هـ/١٩٣١-٢٠٢٠م) موضوع مهم، لم يدرس (إدارياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وتعليمياً وثقافياً وفكرياً) ويستحق أن يدرس في عدد من الكتب والبحوث والرسائل العلمية.

(٢) هذه الأوطان معروفة في بعض كتب التراث والمراجع والوثائق المتأخرة باسم (تهامة والسراة)، وهناك من ذكرها بأسماء المناطق أو القبائل التي تسكنها مثل سراة وتهامة قحطان وشهران، وسراة وتهامة عسير، وسراة وتهامة غامد وهران، وسراة وتهامة الطائف.

وأقول إن تهامة والسراة بلاد واسعة، تستحق عشرات البحوث والكتب العلمية التي توثق تاريخها وحضارتها منذ العصر القديم، وخلال القرون الإسلامية المختلفة. بل إن كل قرية، أو حاضرة، أو مدينة، أو جزء صغير من السروات أو تهامة جدير بالدراسة عبر أطوار التاريخ. لكن العقبة الكؤود لتحقيق هذا الهدف هوندره المادة العلمية المتوفرة للباحث وبخاصة في عصور ما قبل الإسلام، والعصر الإسلامي المبكر والوسيط وجزء من الحديث (ق١-ق١٢هـ/ق٧-ق١٨م). وهذا الذي دفعني إلى إلقاء نظرة محدودة على هذا الجسر الجغرافي الذي يربط بين بلاد اليمن والحجاز. وإذا كانت هاتين الناحيتين الأخيرتين نالتا نصيباً جيداً في ميادين الدراسات والتوثيق فإن منطقتنا (سراة وتهامة) مازالت متأخرة جداً في هذا الباب. وإشارتي إلى بعض اللوحات العلمية ربما يعزز الرغبة والعزيمة عند باحثات أو باحثين جادين فيدرسون بعض الموضوعات المغيبة أو المنسية في هذه الديار. ودور الجامعات المحلية، ممثلة في كلياتها وأقسامها وأساتذتها، يعول عليها الشيء الكثير فتدعم وتشجع كل ما يصب في خدمة أرض وسكان هذه الأوطان الجنوبية السعودية العربية.

(*) وفي بنود تالية أقترح بعض العناوين العلمية الجديدة التي

تساعد من يرغب ويقدر دراستها وتوثيقها، وهي على النحو الآتي :

١. التاريخ السياسي، أو الإداري، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الثقافي والمعرفي لمواطن كثيرة في تهامة والسراة خلال العصور الحجرية أو ما تلاها حتى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي.
٢. الصلات السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الإدارية، أو العلمية لبلدان عديدة في السراة وتهامة مع بلاد الحجاز أو اليمن خلال أي فترة زمنية محددة في العصور القديمة.
٣. تاريخ وحضارة تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه (ق١-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م). وهناك عشرات الموضوعات الجديدة والجديرة بالدراسات العميقة خلال هذه الفترة مثل: التاريخ الديني، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الثقافي. وتاريخ المدن والحواضر وهي كثيرة ومتفاوتة في الأهمية من نجران وأبها حتى الطائف، أو من جازان، وصببا، وبيش حتى المخواة، والقنفذة، والليث. أو تاريخ القبائل وهي كثيرة. وتاريخ الأعلام وهم كثير في ميادين عديدة سياسية، وإدارية، واقتصادية، واجتماعية، وعلمية وأدبية وثقافية.

٤. العلاقات التاريخية أو الحضارية بين السروات وتهامة مع الحجاز أو اليمن. خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه. وهذا باب كبير، وللأسف حتى الآن لم يخدم علمياً وبحثياً، مع أن هناك صلات تاريخية وحضارية نشطة في شتى المجالات. وليس كما أدرجته بشكل عام في هذه الورقات، وإنما كل ناحية أو حاضرة كبيرة في تهامة والسراة كان لها علاقات متعددة الجوانب مع اليمنيين والحجازيين. وهناك أحداث سياسية وحرية وقعت في السروات وتهامة، ولم تكن الحجاز واليمن بعيدة عن ذلك التاريخ، بل كان لها نصيب فيه. كما ظهر في المناطق الثلاث (الحجاز، تهامة والسراة، واليمن) أعلام ساهموا في صناعة تاريخ هذه البلاد. وأعلام آخرون جاءوا من خارجها فكان لهم أدوار مختلفة في تاريخها وحضارتها^(١).

٥. الآثار السطحية في السروات وتهامة، والظاهرة في النقوش والرسومات الصخرية، أو الآبار والسدود والقنوات، أو الكهوف، أو القرى والحصون، أو المقابر، أو الطرق القديمة ومحطاتها، أو مواطن التعدين والمعادن، أو الأسواق الأسبوعية، أو الأحمية كلها مصادر تاريخية قديمة لم تدرس، وإن درست فسوف نعرف شيئاً من تاريخ هذه البلاد في العصور القديمة، والإسلامية المبكرة والوسيطه. ناهيك عن الآثار المدفونة فهي الأخرى كنز ثمين يعكس صفحات من تاريخ هذه البلاد، لكن حتى الآن لا نجد أي بادرة أمل لدراسة هذه المصادر المهمة، والأمل معقود في الوزارات والجامعات والكليات العلمية في المملكة العربية السعودية أن تعمل على دعم وتشجيع دراسة هذا التاريخ.

٦. العصر الحديث والمعاصر أفضل حالاً فيما يتعلق بالسروات وتهامة وعلاقتها مع الحجاز واليمن. حيث نجد بعض البحوث العلمية المتفاوتة في الحجم والجودة والمكان والزمان. وكثير منها مازالت دراسات أو رسائل علمية غير منشورة^(٢). لكنها مازالت قليلة ومحدودة، فهي أعمال علمية فردية. والمكان والزمان يحتاج إلى دعم وتشجيع مؤسسات علمية كبيرة تقوم على إنشاء مراكز بحثية متخصصة تدعم الباحثين الجادين المتكئين حتى يخرجوا لنا دراسات

(١) من يدرس مصادر التراث الإسلامي المتنوعة والمبكرة فإنه يجد أسماء كثيرة من اليمنيين، أو التهاميين والسرويين، أو الحجازيين، أو غيرهم قد ساهموا في الأحداث التاريخية أو الحضارية التي جرت على أرض السروات وتهامة خلال القرون الإسلامية العشرة الأولى (ق.١٠هـ / ق.٧٠٠م)

(٢) اطلمت على بعض هذه البحوث في جامعات المملكة العربية السعودية، واليمن، ومصر، والشام، وبعض الجامعات الأوروبية وبخاصة البريطانية، ومعظمها مازال رسائل علمية غير منشورة.

قوية ومفيدة. وما زال هناك آلاف الوثائق التاريخية والحضارية غير المنشورة، ومعظمها في اليمن، والمملكة العربية السعودية، والقاهرة، وإسطنبول، وبعض الأراشيف التاريخية الأوربية، وإن خرجت ودرست فسوف تقيدنا عن الكثير من تاريخ السراة وتهامة وصلاتها مع اليمن والحجاز. ناهيك عن بعض المخطوطات غير المحققة، فهي الآخر مصدر جيد لتاريخ هذه البلاد.

٧. تاريخ السروات وتهامة المعاصر وصلاتها مع الحجاز واليمن موضوع كبير على مستوى الدول، والقبائل، والجماعات والأفراد. وهذا ميدان رحب يستحق أن يبسط في الكثير من الكتب والبحوث العلمية. أمل من الجامعات المحلية والإقليمية أن تخدم هذا الميدان. وأساتذة التاريخ في كل من اليمن، والسروات وتهامة، والحجاز هم من يجب أن يتصدى لدراسة هذا الموضوع.